تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الثامن والعشرون

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء الثامن والعشرون

سورة المجادلة

هى مدنية وعدة آيها ثنتان وعشرون ، نزلت بعد سورة المنافقين .

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) أن الأولى ختمت بفضل الله ، وافتتحت هذه بما هو من هذا الوادى .

(٢) أنه ذكر فى مطلع الأولى صفاته الجليلة ومنها الظاهر والباطن — وذكر فى مطلع هذه أنه سمع قول المجادلة التى شكت إليه تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ، وَاللهُ
يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ
نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ، إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ
مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ، وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ
مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ،

ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ، ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) .

شرح المفردات

سمع : أى أجاب وقَبِل، كما يقال سمع الله لمن حمده ، والتى تجادلك فى زوجها: هى خَوْلة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية ، وتجادلك : أى تراجعك الكلام فى أمره وفيما صدر منه فى شأنها ، وتشتكى إلى الله : أى تبثّ إليه ما انطوت عليه نفسها من غمّ وهمّ وتضرع إليه أن يزيل كربها ، وزوجها : هو أوس بن الصامت أخو عبادة ابن الصامت ، والسمع : صفة تدرك بها الأصوات أثبتها الله تعالى لنفسه ، والتحاور: المرادّة فى الكلام، والكلام المردّد ، كما يقال كلمته فما رجع إلىّ حواراً : أى ماردّ علىّ بشىء ، والظهار : لغة من ظاهر؛ ويراد به معان مختلفة باختلاف الأغراض فيقال ظاهر فلان فلانا : أى نصره ، وظاهر بين ثوبين : أى لبس أحدهما فوق الآخر ، وظاهر من امرأته : أى قال لها أنت علىّ كظهر أمى، أى محرمة ، وقد كان هذا أشدّ طلاق فى الجاهلية ، والظهار شرعا : تشبيه المرأة أو عضو منها بامرأة محرمة نسبا أو رضاعا أو مصاهرة بقصد التحريم لابقصد الكرامة ، ولهذا المعنى نزلت الآية ، «إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِى وَلَدْنَهُمْ» : أى ما أمهاتهم ، والمنكر: ماينكره الشرع والعقل والطبع، وزوراً : أى كذبا ، فتحرير رقبة : أى عتق عبد أو جارية ، أن يتماسا : أى يجتمعا اجتماع الأزواج ، متتابعين : أى متواليين ، فمن لم يستطع : أى لم يقدر على ذلك لكبر سنّ أو ضعف أو شَبَق إلى النساء ، حدود الله : أى أحكام شريعته ، وللكافرين : أى للذين يتعدّون الأحكام ولا يعملون بها .

المعنى الجملى

روى أن هذه الآيات الأربع نزلت فى خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت. ومن حديث ذلك: «أن أوسا كان شيخا كبيرا قد ساء خلقه، فدخل على خولة يوما فراجعته بشىء فغضب، فقال لها: أنت علىّ كظهر أمى (وكان الرجل فى الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه) وكان هذا أول ظهار فى الإسلام، فندم لساعته، فدعاها (طلب ملامستها) فأبت، وقالت: والذى نفسى بيده لاتصل إلىّ وقد قلتَ ماقلتَ حتى يحكم الله ورسوله، فأتت الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت: يارسول الله إن أوساً تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىّ، فلما خلا سنى ونثرت بطنى (كثر ولدى) جعلنى عليه كأمه إلى غير أحد، فإن كنت تجد لى رخصة تنعشنى بها وإياه فحدثنى بها، فقال عليه الصلاة والسلام: والله ما أُمرت فى شأنك بشىء حتى الآن، وفى رواية ما أراك إلا قد حرمت، قالت: ماذكر طلاقا، وجادلت رسول الله صلى الله عليه وسلم مرارا ثم قالت: اللهم إنى أشكو إليك شدة وحدتى، وما يشق علىّ من فراقه، وفى رواية أنها قالت: أشكو إلى الله فاقتى وشدة حالى، وإن لى صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إنى أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك، وما برحت حتى نزل القرآن فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ياخولةُ أبشرى، قالت خيرا فقرأ عليها «قَدْ سَمِعَ اللهُ» الآيات.

روى البخارى فى تاريخه أنها استوقفت عمر يوما فوقف، فأغلظت له القول، فقال رجل يا أميرالمؤمنين ما رأيت كاليوم، فقال رضى الله عنه، وما يمنعنى أن أستمع إليها وهى التى استمع الله لها، فأنزل فيها ما أنزل «قَدْ سَمِعَ اللهُ» الآيات.

والشارع اعتبر الظهار يمينا وأوجب فيها الكفارة عند إرادة الملامسة بأحد أمور ثلاثة على الترتيب الآتى:

(١) تحرير رقبة (عتق عبد أو جارية) .

(٢) صيام شهرين متواليين إن لم يجد مايعتقه .

(٣) إطعام ستين مسكينا إن لم يستطع الصوم لكبر أو مرض لايرجى زواله ، لكل مسكين نصف صاع من بر (رطل وثلث) أو صاع من تمر أو شعير .

الإيضاح

(قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) أى قد قبل الله شكوى التى جادلت رسوله صلى الله عليه وسلم فى شأن زوجها ، وبثّت أمرها إلى ربها ، وسمع ماسمع من تحاورها مع رسوله ، والله سميع لما يقال ، خبير بحال عباده ، فأنزل فيها ما أزال غُصّتها ، وفرج كربتها ، وأقرّ به عينها ، وبلّ ريقها ، وأرجع إلى كنفها صبيتها ، الذين كانوا مصدر شقوتها ، وبهم اعتلّت (تعلّلت واحتجت) على رسوله .

وقد فصل ما أنزل من الحكم فى حادثتها وأمثالها فقال :

(الذين يظاهرون منكم من نسائهم) أى الذين يقع منهم الظهار من نسائهم ، فيقول أحدهم لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى ، يريد أنكِ علىّ حرام ، كما أن أمى علىّ حرام — مخطئون فيما صنعوا .

(ماهن أمهاتِهم إن أمهاتُهم إلا اللائى ولدنهم) أى مانساؤهم أمهاتهم على الحقيقة فكيف يجعلونهن كذلك ، ما أمهاتهم إلا من ولدنهم ، فلا ينبغى تشبيههن بهن .

ثم زاد الأمر إيضاحا وبالغ فى الاستهجان فقال :

(وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً) أى وإنهم ليقولون قولا منكرا لايجيزه شرع ، ولا يرضى به عقل ، ولا يوافق عليه ذو طبع سليم ، فكيف تشبّه من يسكن إليها وتسكن إليه وجعل بينه وبينها مودة ورحمة ، وصلة خاصة لاتكون لأم ولا لأخت ، بمن جعل صلتها بابنها صلة الكرامة والحنوّ والإجلال والتعظيم ، إلى

أن الرجل قوّام على المرأة له حق تأديبها إذا اعوجّت، وهجرانها فى المضاجع إذا جمحت ولم يُعْطَ ذلك لابن ليعامل به أمه ، فهذا زور وبهتان عظيم .

وغير خاف مافى هذا من الاستهجان ، وشديد التشنيع على صدور هذا القول منهم .

(وإن الله لعفوّ غفور) لما سلف من الذنب متى تاب فاعله منه .

ثم فصل حكم الظهار فقال :

(١) (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا) أى والذين يقولون هذا القول المنكر ثم يتداركونه بنقضه ويرجعون عما قالوا فيريدون المسيس فعلى كل منهم عتق عبد أو أمة قبل التماسّ إن كان ذلك لديه .

ثم بين السبب فى شرع هذا الحكم فقال :

(ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير) أى إنه شرع لكم حكم الكفارة عند طلب العودة إلى المسيس ، ليكون ذلك زاجرا لكم عن ارتكاب المنكر ، فإن الكفارة تمنع من وقوع الجُرْم ، والله خبير بأعمالكم لايخفى عليه شىء منها ، وهو مجازيكم بها ، فانتهوا عن قول المنكر ، وحافظوا على ما شرع لكم من الحدود ، ولا تخلوا بشىء منها .

(٢) (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا) أى فمن لم يجد رقبة ولا ثمنها فاضلا عن قدر كفايته ؛ فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين من قبل التماس ، فإن أفطر يوما من الشهرين ولو اليوم الأخير لعذر أو مرض أو سفر لزمه الاستئناف بصوم جديد لزوال التتابع .

(٣) (فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا) أى فمن لم يستطع صيام الشهرين المتتابعين لكبر سنّ أو مرض لايرجى زواله — فعليه إطعام ستين مسكينا لكل منهم نصف صاع من بُرّ ، أو صاع من شعير أو تمر قبل التماس أيضا .

(ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم) أى ذلك

الذى بيَّناه لكم من وجوب الكفارة حين الظهار ، لتقروا بتوحيد الله وتصدقوا رسوله وتنتهوا عن قول الزور والكذب ، وتتبعوا ماحده الدين من حدود ، و بينه لكم من فرائض ، وللجاحدين بهذه الحدود وغيرها من فرائض الله عذاب مؤلم على كفرهم بها .

وأطلق اسم (الكافر) على متعدِّى هذه الحدود تغليظا للزجر كما قال فى المتهاون فى أداء فريضة الحج « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » .

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) .

شرح المفردات

يحادون : أى يشاقون و يعادون ، وأصل المحادّة الممانعة؛ ومنه قيل للبواب حداد ، كبتوا : أى خذلوا ، وقال المبرد: كبت الله فلانا إذا أذله، والمردود بالذل : مكبوت ، آيات بينات : أى حججا و براهين مبينة لحدود شرائعنا ، مهين : أى يلحق بهم الهوان والذل ، فينبئهم بما عملوا : أى يخبرهم بأعمالهم تو بيخا وتقريعا لهم ، أحصاه الله : أى أحاط به عدّا لم يغب عنه شيء منه ، شهيد : أى مشاهد لايخفى عليه شيء

ألم تر : أى ألم تعلم ، ما يكون : أى ما يوجد ، والنجوى : التناجى والمسارّة كما قال : « لاَخَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ » وقد يستعمل فى المتناجين كما قال : « وَ إِذْهُمْ نَجْوَى » أى أصحاب نجوى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أحكام كفارة الظهار وبيّن أنه إنما شرعها تغليظا للناس حتى يتركوا الظهار ، وقد كان ديدنهم فى الجاهلية ، ويتبعوا أوامر الشريعة ، ويلين قيادهم لها ، ويخلصوا لله ربهم فى جميع أعمالهم ، فتصفو نفوسهم ، وتزكو بصالح الأعمال . أردف هذا ببيان أن من يشاقّ الله ورسوله ويعصى أوامره، يلحق به الخزى والهوان فى الدنيا وله فى الآخرة العذاب المهين فى نار جهنم ؛ ثم أعقب ذلك بالوعيد الشديد ، فبين أنه لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، فهو عليم بمناجاة المتناجين ، فإن كانوا ثلاثة فهو رابعهم، وإن كانوا خمسة فهو سادسهم ، وإن كانوا أقل من ذلك أو أكثر فهو معهم أينما كانوا ، فلا تظنوا أنه تخفى عليه أعمالكم ، وسينبئكم بها عند العرض والحساب ، وحين ينصب الميزان ، فتلقون جزاء ما كسبت أيديكم ، وتندمون ولات ساعة مندم .

الإيضاح

(إن الذين يحادّون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم) أى إن الذين يختارون لأنفسهم حدودا غير ماحده الله ورسوله ، ويضعون شرائع غير ماشرعه ، سيلحقهم الخزى والنكال فى الدنيا كما لحق مَن قبلهم من كفار الأمم الماضية الذين حادوا الله ورسله ، وقد تحقق ذلك يوم الخندق .

وفى هذا بشارة للمؤمنين بظهورهم على عدوهم ونصر الله لهم .

كما أن فيه وعيدا عظيما الملوك وأمراء السوء الذين وضعوا قوانين وشرائع وضعية غير ماشرع الله ، وألزموا رعاياهم العمل بها ، والجرى على نهجها ، وعينوا لذلك قضاة يحكمون بها ، ونبذوا ماجاء فى شرعهم ، والله يقول : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً » .

نعم إنه لابأس بالقوانين السياسية إذا وقعت باتفاق ذوى الآراء من أهل الحل والعقد على وجه يكون به انتظام شمل الجماعات ، إذا كانت لاتخالف فى أحكامها روح التشريع الدينى كتعيين مراتب التأديب للزجر على المعاصى ، والجنايات التى لم ينص الشارع فيها على حد معين ، بل فوض الأمر فيها للإمام ، وليس فى ذلك محادة لله ورسوله ، بل فيها استيفاء لحق الله على الوجه الأكمل .

(وقد أنزلنا آيات بينات) أى وكيف يفعلون ذلك وقد أقمنا دلائل واضحات تبين معالم الشريعة وتوضح حدودها ، وتفصل أحكامها ، وتبين سرّ تشريعها ؟ فلا عذر لهم فى مخالفتها ، والانحراف عن سننها .

(وللكافرين عذاب مهين) أى وللجاحدين بتلك الآيات عذاب يذهب بعزهم وكبريائهم .

والخلاصة — إن هؤلاء المحادين عذابا فى الدنيا بالخزى والهوان ، وعذابا فى الآخرة فى جهنم وبئس القرار .

(يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا ، أحصاه الله ونسوه ، والله على كل شىء شهيد) أى واذكر لهم أيها الرسول حالهم يوم يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، فيخبرهم بما كسبت أيديهم تشهيرا لهم وخزيا على رءوس الأشهاد ، والله قد حفظه وضبطه وهم قد نسوه ، والله شهيد على كل شىء ، فلا يغيب عنه شىء ، ولا ينسى شيئا .

وفى هذا شديد الوعيد والتقريع العظيم والتنديم ، ليعرفوا أن ما حاق بهم من العذاب ، إنما كان من جراء أعمالهم وقبيح أفعالهم .

ثم أكد ماسبق من إحاطة علمه تعالى بكل شىء فقال :

(ألم تر أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلاهو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) أى ألم تعلم أنه تعالى يعلم مافى السموات وما فى الأرض ، فلايتناجى ثلاثة إلا والله معهم ويعلم مايقولون وما يدبرون ، ولا خمسة إلا وهو سادسهم يعلم ما به يتناجون ، ولا نجوى أكثر من هذه الأعداد ولا أقل منها إلا وهو عليم بها ، وعليم بزمانها ومكانها لايخفى عليه شىء من أمرها .

وإنما خص هذه الأعداد ، لأن أقل مالابد منه فى المشاورة التى يكون الغرض منها تدبير المصالح العامة — ثلاثة فيكون الاثنان كالمتنازعين نفيا و إثباتا ، والثالث كالحكم بينهما ، وحينئذ تكمل المشورة ويتم الغرض ، وهكذا فى كل جمع اجتمعوا للمشورة لابد من واحد يكون حكما مقبول القول، ومن ثم يكون عدد رجال المشورة فردا كما جاء فى الآية ونحوها قوله : « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ » وقوله : « أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَنَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ؟ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ » .

(ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم) أى ثم ينبئ هؤلاء المتناجين بما عملوا من عمل يحبه أو يسخطه يوم القيامة، و إنه لعليم بنجواهم وأسرارهم لا تخفى عليه خافية من أمرهم .

وقد علمت أن هذا الإنباء إنما هو للتنديم وزيادة التقريع والتوبيخ على مرأى ومسمع من أهل الموقف ، فيكون ذلك أنكى وأشد إيلامًا لهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ، وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ

اللَّهُ ، وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ، حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ
يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا
بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ، وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) .

شرح المفردات

الذين نهوا عن النجوى : هم اليهود والمنافقون ، بالإثم : أى بما هو معصية وذنب ، والعدوان: الاعتداء على غيرهم كمعصية الرسول ومخالفته ، لولا يعذبنا الله : أى هلا يعذبنا بسبب ذلك ، حسبهم جهنم : أى عذاب جهنم كاف لهم ، يصلونها : أى يقاسون حرّها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه عليم بالسر والنجوى ، وأنه لا تخفى عليه خافية من أمرهم ، فهو عليم بما يكون من التناجى بين الثلاثة والخمسة والأكثر والأقل ، ومجازيهم على ما يكون به التناجى — خاطب رسوله معجّباً له من اليهود والمنافقين الذين نهوا عن التناجى دون المؤمنين ، فعادوا لما نهوا عنه ، وما كان تناجيهم إلا بما هو إثم وعدوان على غيرهم ، ثم ذكر أنهم كانوا إذا جاءوا الرسول حيّوه بغير تحية الله ، فيقولون له: السام عليك (يريدون الموت) ثم يقولون فى أنفسهم : لو كان رسولا لعذبنا الله للاستخفاف به ، وإن جهنم لكافية حد الكفاية لعذابهم ؛ ثم نهى المؤمنين أن يفعلوا مثل فعلهم ، بل يتناجون بالبر والتقوى ؛ ثم بين أن التناجى بالإثم والعدوان من الشيطان ولن يضيرهم شىء منه إلا بإذن الله ، فعليه فليتوكلوا .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه) « روى أن اليهود كانوا إذا مر بهم أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جلسوا يتناجون فيما بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره ، حتى إذا رأى ذلك خشيهم ، فترك طريقهم ، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى فأنزل الله الآية » .

ثم بيّن ما به يتناجون فقال :

(ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) أي وهم يتحدثون فيما بينهم بما هو إثم فى نفسه ووباله عليهم ، وبما هو تعدٍّ على المؤمنين ، وتواص بمخالفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

ثم ذكر جُرْماً آخر يقع منهم فقال :

(وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) روى البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة « أن ناساً من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقال عليه السلام : وعليكم ، قالت عائشة : وقلتُ : عليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ياعائشة عليك بالرفق ، وإياكِ والعنف والفحش ، فقلت : ألا تسمعهم يقولون السام ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أو ماسمعتِ ما أقول : وعليكم ؟ فأنزل الله تعالى (وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ) الآية » .

(ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) أى يفعلون هذا ويقولون مايحرفون من الكلام وإيهام السلام وهم يريدون شتمه ، ويحدِّثون أنفسهم أنه لو كان نبيًّا حقا لعذبنا الله بما نقول ، لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان نبيا حقا لعاجلنا بالعقوبة فى الدنيا فردّ الله عليهم بقوله :

(حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) أى وإن جهنم ومافيها من العذاب الأليم لكافية لعقابهم ونكالهم ، وقد أجّل عذابهم إلى هذا اليوم .

ثم قال تعالى مؤدبا عباده المؤمنين ألا يكونوا مثل اليهود والمنافقين فقال :

(يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) أى إذا حدث منكم أيها المؤمنون تناج ومسارّة فى أنديتكم وخلواتكم ، فلاتفعلوا كما يفعل أولئك الكفار من أهل الكتاب ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين .

(وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون) أى وتناجوا بما هو خير واتقوا الله فيما تأتون وما تذرون ، فإليه تحشرون فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التى أحصاها عليكم ، وسيجزيكم بها .

ثم بين الباعث لهم على هذه النجوى والمزين لهم ذلك فقال :

(إنما النجوى من الشيطان) أى إنما التناجى بالإثم والعدوان من وسوسة الشيطان وتزيينه .

ثم ذكر السبب الذى حداه إلى ذلك فقال :

(ليحزن الذين آمنوا وليس بضارّهم شيئا إلا بإذن الله) أى إنما نعل ذلك يسوء الذين آمنوا بإيهامهم أن ذلك فى نكبة أصابتهم ، وليس الشيطان بضارّ بالمؤمنين شيئاً إلا بإرادة الله ومشيئته .

(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى إن مايتناجى به المنافقون مما يحزن المؤمنين إن وقع ، فإنما يكون بإرادة الله ومشيئته ، فلايكترثنّ المؤمنون بتناجيهم ، وليتوكلُنّ على الله ولا يحزنُنّ .

وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى إذا كان فى ذلك أذى لمؤمن . أخرج البخارى ومسلم والترمذى وأبوداود عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) .

شرح المفردات

تفسحوا : أى توسعوا وليفسح بعضكم عن بعض، من قولهم : افسح عنى أى تنحّ ، يفسح الله لكم: أى فى رحمته ويوسع لكم فى أرزاقكم ، انشزوا : أى انهضوا للتوسعة على المقبلين ، فانشزوا أى فانهضوا ولا تتباطئوا ، يرفع الله الذين آمنوا : أى يرفع منزلتهم يوم القيامة ، ويرفع الذين أوتوا العلم درجات ، أى ويرفع العالمين منهم خاصة درجات فى الكرامة وعلوّ المنزلة .

المعنى الجملى

بعد أن نهى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض من التناجى بالإثم والعدوان — أمرهم بما يكون سبب التوادّ والتوافق بين بعض المؤمنين وبعض : من التوسع فى المجالس حين إقبال الوافد ، والانصراف إذا طلب منكم ذلك .

فإذا فعلتم ذلك رفع الله منازلكم فى جناته ، وجعلكم من الأبرار الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم) أى يأيها الذين آمنوا بالله وصدقوا برسوله ، إذا قيل لكم توسعوا فى مجالس رسول الله أو فى مجالس القتال ، فافسحوا يفسح الله فى منازلكم فى الجنة .

أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال : «كان صلى الله عليه وسلم يوم جمعة فى الصُّفّة وفى المكان ضِيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس منهم ثابت بن قيس وقد سُبِقُوا إلى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، فرد النبى صلى الله عليه وسلم ثم سلموا على القوم فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسَّع لهم ، فلم يفسحوا لهم ، فشقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لبعض من حوله : قم يافلان ، قم يافلان ، فأقام نفراً بمقـدار من قدم ، فشق ذلك عليهم ، وعرفت كراهيته فى وجوههم ، وطعن المنافقون وقالوا : والله ما عدل على هؤلاء ، إن قوما أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه ، أقامهم وأجلس من أبطأ عنه فنزلت الآية».

وقال الحسن : كان الصحابة يتشاحون فى مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب ، فلايوسع بعضهم لبعض رغبة فى الشهادة ، ومن الآية نعلم :

(١) أن الصحابة كانوا يتنافسون فى القرب من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لسماع حديثه ، لما فيه من الخير العميم ، والفضل العظيم ، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام : « لِيلينى منكم أولو الأحلام والنُّهَى » .

(٢) الأمر بالتفسح فى المجالس وعدم التضامّ فيها متى وُجد إلى ذلك سبيل ، لأن ذلك يدخل المحبة فى القلوب ، والاشتراك فى سماع أحكام الدين .

(٣) إن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة ، وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة .

وعلى الجملة فالآية تشمل التوسع فى إيصال جميع أنواع الخير إلى المسلم وإدخال السرور عليه ، ومن ثم قال عليه الصلاة والسـلام « لايزال الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه» .

(وإذا قيل انشزوا فانشزوا) أى وإذا دعيتم إلى القيام عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقوموا ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يؤثر الانفراد أحيانا لتدبير شئون الدين ، أو لأداء وظائف تخصه لاتؤدى أو لا يكمل أداؤها إلا بالانفراد .

وقد عمموا هذا الحكم فقالوا : إذا قال صاحب مجلس لمن فى مجلسه قوموا ينبغى أن يجاب .

ولا ينبغى لقادم أن يقيم أحداً ليجلس فى مجلسه ؛ فقد أخرج مالك والبخارى ومسلم والترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لايقم الرجل الرجل من مجلسه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » .

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) أى يرفع الله المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله ، والعالمين منهم خاصة درجات كثيرة فى الثواب ومراتب الرضوان .

والخلاصة — إنكم أيها المؤمنون إذا فسح أحدكم لأخيه إذا أقبل ، أو إذا أمر بالخروج فخرج ، فلا يظنن أن ذلك نقص فى حقه ، بل هو رفعة وزيادة قربى عند ربه ، والله تعالى لايضيع ذلك بل يجزى به فى الدنيا والآخرة ، فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ، ونشر ذكره .

(والله بما تعملون خبير) أى والله بأعمالكم ذوخبرة لايخفى عليه المطيع منكم من العاصى ، وهو مجازيكم جميعاً بأعمالكم ، فالمحسن بإحسانه ، والمسىء بالذى هو أهله أو يعفو .

يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ،

فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) .

شرح المفردات

ناجيتم الرسول : أى أردتم مناجاته والحديث معه ، فقدموا بين يدى نجواكم صدقة : أى فتصدقوا قبلها ، أطهر : أى أزكى ، لتعويد النفس بذل المال وعدم الضنّ به ، أشفقتم : أى خفتم ، تاب الله عليكم : أى رخص لكم فى المناجاة من غير تقديم صدقة .

المعنى الجملى

علمت من الآية السالفة أن المؤمنين كانوا يتنافسون فى القرب من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لسماع أحاديثه ولمناجاته فى أمور الدين ، وأكثروا فى ذلك حتى شقّ عليه صلى الله عليه وسلم وشغلوا أوقاته التى يجب أن تكون موزعة بين إبلاغ الرسالة والعبادة ، والقيام ببعض وظائفه الخاصة ، فإنه بشر يحتاج إلى قسط من الراحة ، وإلى التحنث إلى ربه فى خلواته .

من أجل هذا نزلت هذه الآيات آمرة بوجوب تقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول والحديث معه ، لما فى ذلك من منافع ومزايا :

(١) إعظام الرسول وإعظام مناجاته ، فإن الشىء إذا نيل مع المشقة استُعظم ، وإن نيل بسهولة لم يكن له منزلة ورفعة شأن .

(٢) نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقات المقدمة قبل المناجاة .

(٣) تمييز المنافقين الذين يحبون المال ويريدون عرض الدنيا — من المؤمنين حقّ الإيمان الذين يريدون الآخرة وما عند الله من نعيم مقيم .

قال ابن عباس : إن المسلمين أ كثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه ، وأراد الله أن يخفف عن نبيه فأنزل هذه الآيات فكف كثير من الناس عن المناجاة .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدى نجواكم صدقة) أى أيها المؤمنون إذا أراد أحد منكم أن يناجى الرسول ويسارّه فيما بينه وبينه — فليقدم صدقة قبل هذا ، لما فى ذلك من تعظيم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ونفع الفقراء والتمييز بين المؤمن حقا والمنافق ، ومحب الآخرة ومحب الدنيا ، ومن دفع التكاثر عليه صلى الله عليه وسلم من غير حاجة ملحّة إلى ذلك .

ثم ذكر العلة فى هذا فقال :

(ذلك خير لكم وأطهر) أى إن فى هذا التقديم خيرا لكم لما فيه من الثواب العظيم عند ربكم ، ومن تزكية النفوس وتطهيرها من الجشع فى جمع المال وحب ادخاره ، وتعويدها بذله فى المصالح العامة كإغاثة ملهوف ، ودفع خصاصة فقير ، وإعانة ذى حاجة ، والنفقة فى كل مايرقّى شأن الأمة ويرفع من قدرها ، ويعلى كلمتها ، ويؤيد الدين وينشر دعوته .

ثم أقام العذر للفقراء فقال :

(فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) أى فإن لم تجدوا الصدقة أيها الفقراء وعجزتم عن ذلك فالله قد رخص لكم فى المناجاة بلا تقديم لها ، لأنه ما أمر بها إلا من قدر عليها .

وقد شرع هذا الحكم لتمييز المخلص من المنافق ، فلما تم هذا الغرض انتهى ذلك الحكم ورخص فى المناجاة بدون تقديم صدقة ، فقال :

(ءأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات) أى أبخلتم وخفتم العيلة والفاقة إن قدمتم الصدقات ، ووسوس لكم الشيطان أن فى هذا الإنفاق ضياعا المال ؟

(فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم) أى فحين لم تفعلوا ما أمرتم به ، وشق ذلك عليكم ، خفف عليكم ربكم فرخص فى المناجاة من غير تقديم صدقة ، فتداركوا ذلك بالمثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة كما قال :

(فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله) أى فأدوا الصلاة وقوّموها بأدائها على أكمل الوجوه ، لما فيها من الإخبات إلى الله والإنابة إليه والإخلاص له فى القول والعمل ، ونهيها عن الفحشاء والمنكر ، ولما فى الزكاة من تطهير النفوس وإزالة الشح بالمال المستحوذ على القلوب الدافع لها إلى ارتكاب الشرور والآثام . وأطيعوا الله فيما يأمركم به من الفرائض والواجبات ، وينهاكم عنه من الموبقات .

ثم وعد وأوعد فقال :

(والله خبير بما تعملون) فهو محيط بنواياكم وأعمالكم ، ومجازيكم بما قدمتم لأنفسكم من خير أو شر ، كما قال « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » وقال : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى » .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَاهُمْ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ

اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ ، أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) .

شرح المفردات

ألم تر : أى أخبرنى وهو أسلوب من الكلام يراد به التعجب وإظهار الغرابة للمخاطب ، والمراد من الذين تولوا: المنافقون، والتولى : من الموالاة وهى المودة والمحبة ، والقوم : هم اليهود ، وغضب الله : سخطه والطرد من رحمته ، ما هم منكم ولا منهم : أى لأنهم مذبذبون ، على الكذب : أى على أنهم معكم على الإيمان ، جنة : أى وقاية وسترا عن المؤاخذة ، على شىء : أى من جلب منفعة أو دفع مضرة ، استحوذ على الشىء : حواه وأحاط به ؛ قال المبرد ويقال حاوزتُ الإبل وحزتُها إذا استوليت عليها وجمعتها ، قالت عائشة : كان عمر أحوذيا نسيج وحده : أى سائسا ضابطا للأمور لا نظير له ، فأنساهم ذكر الله : أى لم يمكنهم من ذكره بما زين لهم من الشهوات ، وحزب الشيطان : جنوده وأتباعه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتنافسون فى القرب من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لتلقى الدين عنه والاهتداء بهديه حتى كان يضيق بهم المجلس ، فأمروا أن يتوسعوا ولا يتضاموا ــ ذكر هنا حال قوم من المنافقين يوادّون اليهود ويطلعونهم على أسرار المؤمنين ، فهم عيون لهم عليهم ، وإذا لاقوا المؤمنين قالوا لهم : إنا معكم نؤيدكم على أعدائكم بكل ما أوتينا من قوة وهم كاذبون

فى كل ما يقولون وقد جعلوا الإيمان وقاية لستر ما يبطنون ، فأمنوا من المؤاخذة وجاسوا خلال ضعفاء المؤمنين يصدونهم عن الدين ويذكرون لهم ما يبغضهم فيه ؛ ثم أبان أن الله قد أعد لمثل هؤلاء عذابا شديدا يوم القيامة ، وما هم فيه من مال وولد فى الدنيا لن يغنى عنهم شيئاً حينئذ ؛ ثم ذكر أن الذى جرأهم على ما فعلوا هو الشيطان ، فقد استولى على عقولهم ، وزين لهم قبيح أعمالهم ، فأنساهم عذاب اليوم الآخر ؛ ثم ذكر أن أولئك هم جند الشيطان ، وجنود الشيطان لن تفلح فى شىء ، وسيرد الله عليهم كيدهم فى نحورهم ، ويحبط سعيهم ، ويظهر نور دينه ولو كره الكافرون .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم) أى أخبرنى عن حال هؤلاء المنافقين الذين اتخذوا اليهود أولياء يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين؛ إن حالهم لتستدعى العجب ، يقابلون كل قوم بوجه ، فهم مع اليهود نصحاء أمناء يبلغونهم ما يعرفونه من دخائل المؤمنين اكتسابا لصداقتهم وودهم ، ومع المؤمنين مؤمنون مخلصون قد بلغ الإيمان قرارة نفوسهم ، وملك عليهم مشاعرهم وحواسهم ؛ والحقيقة أنهم يخدعون الفئتين كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله :

(ما هم منكم ولا منهم) أى فلا هم بالمؤمنين حقا بل هم مؤمنون من طرف اللسان مداراة للمؤمنين وخوفا من بطشهم ، ولا هم مع اليهود ، لأنهم لا يعتقدون أنهم على الدين الحق ، ولكنهم يريدون أن ينتفعوا بما عندهم من عَرَض الدنيا ، وأن يحتفظوا بمودتهم إذا احتاجوا إليها ، فهم كما قال الله فيهم : « مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ » وفى الخبر « مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين غنمين » أى المترددة بين قطيعين « لاتدرى أيهما تتبع » .

ثم ذكر أنهم يؤكدون إيمانهم وإخلاصهم بالأيمان الكاذبة فقال :

(ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) أى وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا إنا آمنا وإذا جاء الرسول حلفوا وقالوا له : نشهد إنك لرسول الله ، والله يشهد إنهم لكاذبون فيما يقولون ، لأنهم لايعتقدون صدقه .

ثم ذكر مآلهم وبيّن ما يلقون من النكال والوبال فقال :

(أعدّ الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون) أى أرصد الله لهم نكالا وعذابا أليما جزاء صنيعهم بغش المسلمين واطلاع أعدائهم على أسرارهم ونصحهم لهم .

ثم ذكر ما جعلوه تُكأَةً لهم على تصديقهم فقال :

(اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله) أى أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر وتستروا بالأيمان الكاذبة ، فظن كثير ممن لايعرف حقيقة أمرهم أنهم صادقون ؛ وبهذه الوسيلة صدوا كثيرا من الناس عن سبيل الله بتثبيط من لقوا عن الدخول فى الإسلام بتحقير شأنه فى نظرهم .

ثم بين ما كافأهم به على عملهم فقال :

(فلهم عذاب مهين) أى فلهم عذاب يلحقهم به الذل والهوان فى النار جزاء ما امتهنوا اسمه الكريم بالحلف به كذبا .

ثم أرشد إلى أن ما ظنوه منجيا لهم من عذاب الله من المال والأولاد – ليس بنافع لهم حينئذ فقال :

(لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى لن تغنى عن هؤلاء المنافقين الأموال فيفتدوا بها من عذاب الله ، ولا الأولاد فينصروهم وينقذوهم من العذاب إذا هو عاقبهم ، فأولئك هم أهل النار وهم خالدون فيها أبدا ، وقد تقدم مثل هذا فى غير موضع من الكتاب الكريم .

(يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم) أى واذكر لهم أيها الرسول حالهم يوم يبعثهم الله جميعا من قبورهم أحياء كهيئتهم قبل مماتهم ، فيحلفون له

قائلين : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » كما كانوا يحلفون لكم فى الدنيا إنهم مؤمنون مثلكم .

(ويحسبون أنهم على شئ) أى ويعتقدون أن ذلك نافع لهم ، فيجلب لهم الخير ، ويدفع عنهم الضّير ، كما كان ذلك شأنهم فى الدنيا ، إذ كانوا يدفعون بتلك الأيمان الفاجرة عن أرواحهم وأموالهم ويحصلون على فوائد دنيوية أخرى .

ثم رد عليهم منكرا لهم فقال :

(ألا إنهم هم الكاذبون) فيما يحلفون عليه زعما منهم أن أيمانهم الفاجرة تروّج الكذب لديه تعالى ، كما تروّجه لدى المؤمنين فى الدنيا .

ونحو الآية قوله : « ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . أُنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » .

ثم بين السبب الذى أوقعهم فى الردى وأوصلهم إلى قرارة جهنم فقال :

(استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله) أى غلب على عقولهم بوسوسته وتزيينه حتى اتبعوه ، فلم يمكنهم من ذكر الله واتباع أوامره وترك نواهيه ، بما زين لهم من الشهوات فأوقعهم فى دركات جهنم ، وبئس المصير .

(أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) أى أولئك هم جنود الشيطان وأعوانه ، وإن جنده لهم الهالكون المغبونون فى صفقتهم ، إذ هم قد فوّتوا على أنفسهم النعيم المقيم ، واستبدلوا به العذاب الأليم ، وليس من دأب العاقل أن يقبل مثل هذا لنفسه .

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لاَتَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ

أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) .

شرح المفردات

يحادون : أى يعادون ويشاقون ، فى الأذلين : أى فى جملة أذلّ خلق الله ، لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر ، كتب الله : أى قضى وحكم ، لأغلبنّ : أى بالحجة والسيف ، وأيدهم : أى قواهم ، بروح من عنده : أى بنور يقذفه فى قلب من يشاء من عباده ، لتحصل له الطمأنينة والسكينة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال أولئك المنافقين الذين يحلفون كذبا إنهم مؤمنون ، ويمالئون المؤمنين طورا واليهود طورا آخر اكتسابا لرضا الفريقين ، ثم بين أن الذى حملهم على ذلك هو الشيطان ، إذ غلبهم على أمرهم حتى أنساهم ذكر الله وما يجب له من تعظيم ووجوب اعتقاد باليوم الآخر ، ثم حكم عليهم بأن صفقتهم خاسرة ، لأنهم باعوا الباقى بالفانى والزائل الذى لا دوام له بما هو دائم أبدا سرمدا ــ بين هنا سبب خسرانهم وهو أنهم شاقوا الله ورسوله وعصوا أمرهما ، فكتب عليهم الذلة فى الدنيا والآخرة ، إذ قد قضى بأن العزة والغلب له ولرسله ، والذلة لأعدائه ؛ ثم ذكر أن الإيمان الحق لايجتمع مع موالاة أعدائه مهما قرب بهم النسب بأن كانوا آباء أو أبناء أو إخوانا أو من ذى العشيرة ، لأن المحادين كتبت عليهم الذلة ، وأولئك كتبت لهم العزة ، وقوّاهم ربهم بالطمأنينة والثبات على الإيمان ، وهم جند الله وناصرو دينه .

وحزب الله مفلح لامحالة وقد كتبت له السعادة فى الدارين كما قال : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » .

الإيضاح

(إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين) أى إن الذين يخالفون أوامر الله ونواهيه ، ويمتنعون عن أداء ما فرض عليهم من فرائضه ، هم فى جملة أهل الذلة ، لأن الغلبة لله ولرسوله ، وذلهم فى الدنيا يكون بالقتل والأسر والإخراج من الديار كما حصل للمشركين واليهود ، وفى الآخرة بالخزى والنكال والعذاب الأليم كما قال سبحانه : « رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » .

وفى هذا بشارة للمؤمنين بأنه سيظهرهم على عدوهم ويكتب لهم الفوز ويكونون هم الأعزاء وسواهم الأذلاء .

ثم أكد ماسلف بقوله :

(كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) أى قضى الله وحكم فى أم الكتاب بأن الغلبة بالحجة والسيف وما يجرى مجراهما تكون لله ورسله ، فقد أهلك كثيرا من أعدائهم بأنواع من العذاب كقوم نوح وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم (والحرب بين نبينا وبين المشركين ، وإن كانت سجالا كانت العاقبة فيها له عليه الصلاة والسلام) ثم تكون لأتباعه من بعده ما داموا على سننه ، محافظين على الحدود التى أُمروا بها ، وجاهدوا عدوهم جهادا خالصا لله على نحو جهاد الرسل ، لا لطلب ملك وسلطان ، ولا لطلب دنيا ومال .

وعن مقاتل قال : لما فتح الله تعالى مكة للمؤمنين والطائف وخيبر وما حولها ، قالوا نرجو أن يظهرنا الله على فارس والروم ، فقال عبد الله بن أُبىّ رأس المنافقين : أتظنون أن فارس والروم كبعض القرى التى غلبتم عليها ؟ والله إنهم لأكثر عددا وأشد بطشا من أن تظنوا فيهم ذلك فنزلت : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .

(إن الله قوى عزيز) أى إن الله الذى له الأمر كله — قوىّ على نصر رسله لايُغلَب على مراده ، فمتى أراد شيئا كان ولم يجد معارضا ولا ممانعا كما قال : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) أى لاتجد قوما يجمعون بين الإيمان بالله واليوم الآخر ، ومَوادّة أعداء الله ورسوله ، لأن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكافرين ، إذ من كان مؤمنا حقا لايوالى كافرا ، فمن أحب أحدا امتنع أن يوالى عدوه ، والمراد من موالاته مناصحته وإرادة الخير له فى الدين والدنيا ، أما المخالطة والمعاشرة فليست بمحظورة ؛ ولقد أصاب المسلمين اليوم من ذلك بلاء شديد ، فإنا نرى الأمم الإسلامية أصبحت فى أخريات الأمم ، وأبناؤها فى شمال أفريقية وفى مصر وغيرها يوالون الإفرنجة وينصرونهم على أبناء جنسهم ، ولو كان فى هذا ذل لهم ولدينهم وأمتهم ، ولن يزول هذا إلا بالاستشعار بالعزة والكرامة القومية والدفاع عن حوزة الدين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ثم بالغ فى الزجر وأبان أنه لاينبغى لمؤمن أن يفعل ذلك ولو مع الأقارب كالآباء الذين يجب طاعتهم ومصاحبتهم فى الدنيا بالمعروف ، أو الأبناء الذين هم فلذات الأكباد ، أو الإخوان الذين هم الناصرون لهم ، أو العشيرة الذين يعتمد عليهم بعد الإخوان .

والخلاصة — إنه لايجتمع إيمان مع موادّة أعداء الله ، لأن من أحب أحدا امتنع من محبة عدوه ، فإذا حصل فى القلب مودة أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان الصحيح وكان صاحبه منافقا .

أخرج الطبرانى والحاكم والترمذى مرفوعا « يقول الله تبارك وتعالى : وعزتى لاينال رحمتى من لم يوال أوليائى ، و يعاد أعدائى » وأخرج الديلمى من طريق الحسن عن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم لاتجعل لفاجر ولا لفاسق علىّ يداً ولا نعمة فيودّه قلبى ، فإنى وجـــدت فيما أوحيت إلىّ : لاَتَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ » .

قيل إن الآيات نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه، أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : حُدِّثت أن أبا قُحَافة سبَّ النبى صلى الله عليه وسلم فصكه أبو بكر صكة سقط بها على وجهه ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : أفعلت يا أبا بكر ؟ قال نعم ، قال لاتَعُدْ ، قال والله لوكان السيف قريبا منى لقتلته .

وقيل نزلت فى أبى عبيدة بن عبد الله الجراح ، أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وأبو نُعيم فى الحِلية والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : جعل والد أبى عبيدة يتصدى له يوم بدر ، وجعل أبوعبيدة يحيد عنه ، فلما أكثرَ قصدَه أبو عبيدة فقتله فنزلت : (لاتجد قوما) الآية .

(أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان) أى أولئك الذين سلفت أوصافهم أثبت الله فى قلوبهم الإيمان ، والإيمان نعمة عظيمة لاتحصل لمن يوادّ من حادّ الله ورسوله.

وفى هذا مبالغة فى الزجر عن موادة أعداء الله .

ثم ذكر سببا آخر يمنع من موادتهم فقال :

(وأيدهم بروح منه) أى إنه قواهم بطمأنينة القلب والثبات على الحق ، فلا يبالون بموادة أعداء الله ولا يأبهون لهم .

ثم ذكر ما أعده لهم من النعيم المقيم فقال :

(ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى ماكثين فيها أبدا .

ثم ذكر السبب فيما أفاض الله عليهم من نعمة فقال :

(رضى الله عنهم ورضوا عنه) أى أغدق عليهم من رحمته العاجلة والآجلة ، فأدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ورضوا عنه لابتهاجهم بما أوتوه عاجلا وآجلا ، فإنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر فى الله تعالى — عوضهم الله بالرضا عنه ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم .

ثم أشاد بتشريفهم لجعلهم جنده تعالى فقال :

(أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) أى أولئك أنصار الله وجنده وأهل كرامته ، وهم أهل الفلاح والسعادة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

(١) ألفة الأزواج فى المنازل .
(٢) ألفة الأصحاب فى المجالس .
(٣) الأدب مع الحكام بترك مضايقتهم ، لكثرة أعمالهم .
(٤) رفق الحكام بالمحكومين إذا رأوا أمراً يثقلهم .
(٥) مجانبة خيانة الأمة بموالاة أعدائها ، وبالنفاق والشقاق ، فإن ذلك يضعفها ويفرق جمعها ويذلها .

سورة الحشر

هى مدنية ، وعدة آيها أربع وعشرون نزلت بعد سورة البيّنة .

ومناسبتها ماقبلها من وجوه :

(١) إن فى آخر السالفة قال : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » وفى أول هذه قال : « فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » .

(٢) إن فى السابقة ذكر من حادّ الله ورسوله ، وفى أول هذه ذكر من شاقّ الله ورسوله .

(٣) إن فى السالفة ذكر حال المنافقين واليهود وتولى بعضهم بعضا ، وفى هذه ذكر ماحل باليهود ، وعدم غناء تولى المنافقين إياهم . « روى أن بنى النضير كانوا قد صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا عليه ولاله ، فلما ظهر يوم بدر قالوا هو النبى الذى نعت فى التوراة ، لاتردّ له راية ، فلما هُزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكبا إلى مكة فحالفوا عليه قريشا عند الكعبة ، فأخبر جبريل النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فأمر بقتل كعب فقتله محمد بن سلمة غِيلة وهو عروس ، وكان عليه الصلاة والسلام قد اطلع منهم على خيانة حين أتاهم يستعينهم فى دية المسلمين من بنى عامر عند مُنْصرفه من بئر مَعُونة ، إذ همّوا بطرح حجر عليه فعصمه الله .

وبعد أن قتل كعب بأشهر تهيأ المسلمون لقتالهم وساروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم حتى إذا نزل فى بنى النضير وجدهم ينوحون على كعب ، وقالوا ذرنا نبكى شجونا ، ثم ائتمر أمرك ، فقال : اخرجوا من المدينة ؛ فقالوا الموت أقرب إلينا من ذلك ، فتنادوا بالحرب ، ودس المنافقون عبد الله بن أبىّ وأضرابه إليهم ألا يخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوكم فنحن معكم ،

وإن أُخْرِجْتم لنخرجنّ معكم ، فحصنوا الأزقة وحاصروهم إحدى وعشرين ليلة ، وقذف الله الرعب فى قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين فطلبوا الصلح ، فأبى إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ماشاءوا من متاعهم ، فجلَوْا إلى الشام ، إلى أريحاء وأذرعات ، إلا أهل بيتين منهم هما آل أبى الحُقيق وآل حُيَىّ بن أخطب ، فإنهم لحقوا بخيبر ، ولحقت طائفة بالحيرة ، وقبض النبى صلى الله عليه وسلم أموالهم وسلاحهم ، فوجد خمسين درعا وخمسين بيضة » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ، فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) .

شرح المفردات

الذين كفروا : هم بنو النَّضِير (بزنة أمير) قبيلة عظيمة من اليهود كبنى قُرَيظة ، والحشر : إخراج جمع من مكان إلى آخر ، ولأول الحشر : أى فى أول حشرهم ،

أى جمعهم وإخراجهم من جزيرة العرب ونفيهم إلى بلاد الشام ، وآخر حشر: إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام ، والحصون : واحدها حصن وهو القصر الشاهق والقلعة المشيدة ، مانعتهم حصونهم من الله : أى مانعتهم من بأسه وعقابه ، فأتاهم الله : أى جاءهم عذابه ، من حيث لم يحتسبوا: أى من حيث لم يخطر لهم ببال ، وقَذْفُ الشيء: رميه بقوة ، والمراد هنا إثباته وركزه فى قلوبهم ، والرعب : الخوف الذى يملأ الصدر يخربون : أى يهدمون ، فاعتبروا : أى فاتعظوا ، والاعتبار: النظر فى حقائق الأشياء وجهات دلالتها ، ليعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها ، وأجليت القوم عن منازلهم : أى أخرجتهم منها ، وجلوا : خرجوا ، وقد فرقوا بين الإجلاء والإخراج من وَجهين : أن الأول لايكون إلا لجماعة ، والثانى : يكون لواحد ولجماعة ، وأن الأول ما كان مع الأهل والولد والثانى يكون مع بقائهما ، واللينة : النخلة ما لم تكن عجوة .

المعنى الجملى

علمت مما سلف أن اليهود نقضوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وظاهروا المشركين اتكالا على مساعدة المنافقين لهم ومناعة حصونهم، فتهيأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار لقتالهم ، فلما علموا بقدومه حصنوا الأزقة فحاصرهم عليه الصلاة والسلام عدة أيام وألقى الله الرعب فى قلوبهم ، فطلبوا الصلح فأبى إلا الجلاء وأخرجهم من حصونهم بعد تخريبها بأيديهم وأيدى المؤمنين ، ولولا جلاؤهم لعذبهم فى الدنيا بالقتل والأسر ، ولهم فى الآخرة عذاب شديد ، وما كان ذلك إلا بإذن الله وتقديره للأمور وفق الحكمة والمصلحة .

الإيضاح

(سبح لله مافى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم) أى إن جميع مافى السموات والأرض من الأشياء يقدسه سبحانه ويمجده ، إما باللسان أو بالقلب أو بدلالة الحال لانقياده لتصريفه له كيف شاء لامعقّب لحكمه .

ونحو الآية قوله تعالى : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

ثم بين بعض آثار عزته ، وأحكام حكمته فقال :

(هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) أى هو الذى أجلى بنى النضير من المدينة بقوة عزته ، وعظيم سلطانه ، وكان هذا أول مرة حشروا فيها وأخرجوا من جزيرة العرب لم يصبهم الذل قبلها ، لأنهم كانوا أهل عزة ومنعة ، وآخر حشر لهم إجلاء عمر رضى الله عنه لهم من خيبر إلى الشام .

ثم بيّن فضل الله على المؤمنين ، ونعمته عليهم فى إخراج عدوهم من ديارهم ولم يكن ذلك منتظراً فقال :

(ماظننتم أن يخرجوا) أى ماخطر لكم ذلك أيها المؤمنون ببال ، لشدة بأسهم ومنعتهم ، وقوة حصونهم ، وكثرة عَددهم وعُددهم .

وفى ذكر هذا تعظيم للنعمة ، فإن النعمة إذا جاءت من حيث لاتُرتقَبُ كانت مكانتها فى النفوس أعظم ، وكانت بها أشد سروراً وابتهاجاً .

والمسلمون ماظنوا أن يبلغ الأمر بهم إلى إخراج اليهود من ديارهم ، ويتخلصوا من مكايدهم وأشراكهم التى مافتئوا ينصبونها المؤمنين ، وبذا قضى الله عليهم قضاءه الذى لامردّ له ، وصدق الله (لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) .

ثم ذكر ما جرّأهم على مشاكسة النبي صلى الله عليه وسلم وتأليب المشركين عليه فقال :

(وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) أى وظن بنو النضير أن حصونهم المنيعة القوية تمنعهم من أن ينالهم عدو بسوء ، فلا يستطيع جيش مهما أوتى من بأس أن يصل إليهم بأذى ، فاطمأنوا إلى تلك القوة ، وأوقدوا نار الفتنة بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمشركين ، طمعاً فى القضاء عليه ، بعد أن أصبحت له الزعامة

الدينية والسياسية فى المدينة ، وسيكون فى ذلك القضاء عليهم لو صبروا ، وقد غبروا دهراً وهم أصحاب السلطان فيها ، لأنهم من وجه أهل كتاب ، ومن وجه آخر هم أرباب النفوذ المالى فيها ، وأصحاب الثروة والجاه العريض .

ثم أكد ماسلف وقرره بقوله :

(فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) أى فجاءهم بأس الله وقدرته الذى لا تُدْفع من حيث لم يخطر ذلك لهم ببال ، وصدق فيهم ماقيل : قد يُؤتَى الحَذِر من مأمنه . فأجلاهم النبى صلى الله عليه وسلم من المدينة ، فذهبت طائفة منهم إلى أَذْرِعات من أعالى الشام ، وطائفة إلى خَيْبَر على أن يأخذوا معهم ماحملت إبلهم .

ثم بين أسباب هذا الاستسلام السريع ، والنزول على حكم الرسول على مناعة الحصون وكثرة العَدد والعُدَد فقال :

(وقذف فى قلوبهم الرعب) أى بثّ فى قلوبهم الهلع والخوف حين جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إليهم ، فلم يستطيعوا إلى المقاومة سبيلا .

ومما كان له بالغ الأثر فى هذا الخوف قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غِيلةً ، وما رأوه من كذب وعد عبد الله بن أُبىّ رأس المنافقين فى نصرتهم ، وإرسال المدد إليهم ، وتغريره بهم ، وتوسيع مسافة الخلف بينهم وبين الرسول ، فهم قد أوقدوا نارا كانوا هم حطب لهيبها ، وفتحوا ثُغْرَةً بِرءوسهم قد سدّوها ، ووقعوا فى حفرة هم الذين كانوا قد حفروها ، فابتلعتهم لا إلى رجعة .

ثم بين مدى ما لحقهم من الهلع والجزع ، وكيف حاروا فى الدفاع عن أنفسهم فقال :

(يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين) أى يخربون بيوتهم بأيديهم ليسدوا بما نقضوا منها من الخُشُب والحجارة أفواه الأزقة حتى لايدخلها العدو ، وحتى لاتبقى صالحة لسكنى المؤمنين بعد جلائهم ، ولينقلوا بعض أدواتها التى تصلح للاستعمال فى جهات أخرى كالخُشُب والعَمَد والأبواب ، ويخربها المؤمنون من خارج ليدخلوها

عليهم ، ويزيلوا تحصنهم بها ، وليتسع مجال القتال ، ويكون فى ذلك عظيم التنكيل والغيظ لهم .

ثم ذكر مايجب أن يجعله العاقل نُصْبَ عينيه من عظة واعتبار فقال :

(فاعتبروا يا أولى الأبصار) أى فاتعظوا ياذوى البصائر السليمة ، والعقول الراجحة ، بما جرى لهؤلاء من أمور عظام ، وبلاء ما كان يخطر لهم ببال ، بأسباب تحار فى فهمها العقول ، ولا يصل إلى كنه حقيقتها ذوو الآراء الحصيفة ، وابتعدوا عن الكفر والمعاصى التى أوقعتهم فى هذه المهالك ، فالسعيد من وُعِظ بغيره ، وإيا كم والغدر ، والاعتماد على غير الله ، فما اعتمد أحد على غيره إلا ذلّ .

ثم بين أن الجلاء الذى كتب عليهم كان أخف من القتل والأسر فقال :

(ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار) أى ولولا أن الله قدّر جلاءهم من المدينة ، وخروجهم من أوطانهم على هذا الوجه المهين ، لعذبهم فى الدنيا بما هو أفظع منه من قتلٍ وأسر كما فعل مع المشركين فى وقعة بدر ، وكما فعل مع بنى قُرَيظة فى سنة خمس للهجرة ، كفاء غدرهم وخياناتهم ، وتأليب المشركين على المؤمنين ، والسعى فى إطفاء نور الإسلام حتى لا تقوم لهم قائمة — إلى ما أعد لهم من عذاب مقيم ، ونكال وجحيم ، حين تقوم الساعة، وتجازى كل نفس بما كسبت .

ثم بين السبب فيما حل بهم وذكر علته فقال :

(ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) أى إنه إنما فعل ذلك بهم ، وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين ، لأنهم خالفوا الله ورسوله ، وكذبوا بما أنزله على رسله المتقدمين من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

ثم ذكر مآل من يعادى الله ورسوله فقال :

(ومن يشاقّ الله فإن الله شديد العقاب) أى ومن يعاد الله فإن الله يعاقبه أشد العقاب ، وينزل به الخزى والهوان فى الدنيا ، والنكال السرمدى فى الآخرة .

ثم ذكر أن كل شيء بقضاء الله وقدره فقال :

(ماقطعتم من لينة أوتركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) أى أىّ شيء قطعتموه من النخل أو أبقيتموه كما كان ولم تتعرضوا له بشيء فذلك بأمر الله الذى بلّغه إليكم رسوله لتطهر البلاد من شرورهم .

روى أنه عليه الصلاة والسلام حين أمر بقطع نخلهم وحرقه قالوا : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد فى الأرض ، فما بال قطع النخل وتحريقها ، وكان فى أنفس المؤمنين من ذلك شيء ؛ فقالوا لنسألنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله الآية :

(وليخزى الفاسقين) أى فعل ذلك ليعزّ المؤمنين ، وليخزى الفاسقين ، ويذلهم ويزيد غيظهم ، ويضاعف حسرتهم ، بنفاذ حكم أعدائهم فى أعزّ أموالهم .

والخلاصة — إنكم بأمر الله قطعتم ، ولم يكن ذلك فساداً بل نعمة من الله ، ليخزيهم ويذلهم بسبب فسقهم وخروجهم من طاعة الله ومخالفة أمره ونهيه .

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) .

شرح المفردات

قال المبرد: يقال فاء يفيء إذا رجع ، وأفاءه الله إليه: أى رده وصيره إليه ، والفئ شرعا : ما أخذ من أموال الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كأموال بنى النضير ، ويقال وجف الفرس والبعير يجف وجفاً ووجيفاً : إذا أسرع ، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع ؛ والركاب : ما يركب من الإبل، واحدتها راحلة ، ولا واحد لها من لفظها ، والعرب لاتطلق لفظ الراكب إلا على راكب البعير ، ويسمون راكب الفرس فارساً ، يسلط رسله : أى على أعدائه من غير قتال ولا مصاولة بل بإلقاء الرعب فى القلوب ، فيكون الفيء للرسول يصرفه فى مصارفه التى سيعلمها بعد ، من أهل القرى: أى من أهل البلدان التى تفتح هكذا بلا قتال ، ولذى القربى : أى بنى هاشم و بنى المطلب ، قال المبرد : الدُّولة (بالضم) الشيء الذى يتداوله القوم بينهم يكون كذا مرة وكذا أخرى ، والدَّولة (بالفتح) انتقال حال سارّة من قوم إلى قوم ، أى فالأولى اسم لما يتداول من المال ، والثانية اسم لما ينتقل من الحال، آتاكم : أى أعطاكم ، وما نهاكم عنه . أى مامنعكم عن فعله .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه ما حلّ ببنى النضير من العذاب العاجل كتخريب بيوتهم بأيديهم وتحريق نخيلهم وتقطيعها ، ثم إجلائهم من بعد ذلك عن الديار إلى الشام دون أن يحملوا إلا القليل من المتاع ـ ذكر هنا حكم ما أخذ من أموالهم ، فجعله فيئا لله ورسوله ينفق منه على أهله نفقة سنة ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكُراع عُدّة فى سبيل الله ، ولا يقسم بين المقاتلة كالغنيمة ، لأنهم لم يقاتلوا لأجله .

روى أن الصحابة رضى الله عنهم طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقسم الفئ بينهم كما قسم الغنيمة فى بدر وغيرها بينهم ، فبين سبحانه الفرق بين

الأمرين ، بأن الغنيمة تكون فيما أتعبتم أنفسكم فى تحصيله وأوجفتم عليه الخيل والركاب ، والفىء فيما لم تتحملوا فى تحصيله تعبا ، وحينئذ يكون أمره مفوّضا إلى الرسول يضعه حيث يشاء .

الإيضاح

(وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) أى ماصيره الله إلى رسوله من أموال بنى النضير فهو لله ورسوله ، ولا يجعل غنيمة للجيش يقسم تقسيم الغنائم ، لأنه لم تقاتَل فيه الأعداء بالمبارزة والمصاولة ، بل نزلوا على حكم الرسول فرَقاً ورُعْبا ، ولهذا يصرف فى وجوه البر والمنافع العامة التى ذكرها الله فى هذه الآيات .

أخرج البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم عن عمر بن الخطاب قال : « كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله تعالى على رسوله خاصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكُراع عُدّة فى سبيل الله تعالى » .

(ولكن الله يسلط رسله على من يشاء) أى ولكن جرت سنة الله أن يسلط رسله على من يشاء من أعدائه ويقذف الرعب فى قلوبهم ، فيستسلمون لهم بلا قتال ولا مصاولة ، كما سلط محمدا صلى الله عليه وسلم على هؤلاء فنزلوا على حكمه دون اقتحام مضايق الخطوب ، ولا مقاومة شدائد الحروب ، فلا حق للمقاتلة فى الفىء بل يكون أمره مفوضا إلى الرسول يصرفه كيف شاء ، ولا يقسمه تقسيم الغنائم .

(والله على كل شىء قدير) فيفعل ما يشاء كما يشاء ، تارة على مايعهد من السنن وأخرى على غير ما يعهد منها كما جرى لبنى النضير من استسلامهم بلا قتال على

مناعة حصونهم وكثرة عَددهم وعُددهم من سلاح وكراع ، وما كان المسلمون يظنون أن هذا سيكون .

وبعد أن أتمّ الكلام فى إجلاء بنى النضير وفيئهم أعقبه بالكلام فى حكم ما أفاء الله على رسوله من قرى الكفار عامة فقال :

(ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) أى ما رده الله إلى رسوله من كفار أهل القرى كقُريظة والنَّضير وفَدَك وخَيْبر ، فيصرف فى وجوه البر والخير ولا يقسم تقسيم الغنائم ، بل يعطى للرسول ولذوى قرباه من مؤمنى بنى هاشم وبنى المطلب ، ولليتامى الفقراء ، والمساكين ذوى الحاجة والبؤس ، ولابن السبيل الذى انقطع عنه ماله ، ولا يمكن أن يصل إليه لبعد الشُّقَّة وانقطاع طرق المواصلات ، وقد كان ذلك حين كانت طرق الوصول شاقة ، لكنها الآن سهلة وهى على أساليب شتى ، فيمكن المرء أن يطلب ما شاء بحوالة على أى مصرِف فى أى بلد على سطح الكرة الأرضية ، ومن ثم فهذا النوع لا يوجد الآن .

ثم علل هذا التقسيم بقوله :

(كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) أى وإنما حكمنا بذلك وجعلناه مقسما بين هؤلاء المذكورين ، لئلا يأخذه الأغنياء ويتداولوه فيما بينهم ، ويتكاثروا به ، كما كان ذلك دأبهم فى الجاهلية ، ولا يصيب الفقراءَ من ذلك شىء .

(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) أى وما أعطاكم الرسول من الفئ وغيره فخذوه فهو لكم حلال ، وما نهاكم عنه فابتعدوا عنه ولا تقربوه ، فإن الرسول لا ينطق عن الهوى كما قال سبحانه : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » .

أخرج الشيخان وأبو داود والترمذى فى جماعة عن ابن مسعود قال : « لعن الله

تعالى الواشمات[1] والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أم يعقوب كانت تقرأ القرآن فقالت بلغنى أنك لعنت كيت وكيت ، فقال : مالى لا ألعن من لعن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو فى كتاب الله عز وجل ، فقالت : لقد قرأتُ ما بين لوحى المصحف فما وجدته ، قال إن كنت قرأته فقد وجدتِه ، أما قرأتِ قوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » قالت بلى ، قال : فإنه صلى الله عليه وسلم قد نهى عنه » .

وعن أبى رافع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم متكئاً على أريكته يأتيه أمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدرى ، ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه » .

ثم حذرهم من مخالفة أوامر الله ونواهيه فقال :

(واتقوا الله إن الله شديد العقاب) أى واتقوا الله فامتثلوا أوامره ، واتركوا نواهيه ، فإنه شديد العقاب لمن عصاه ، وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه ، ورسوله ترْجُمان عما يريده الله لخير عباده وسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

---

(١) الوشم : غرز الإبرة فى عضو من الجسم ثم حشوه بالكحل، والمستوشمة : التى تطلب فعل ذلك ، والمتنمصة : هى التى تنتف الشعر من الوجه وغيره ، والمتفلجة : هى التى تتكلف تفريج مابين الثنايا بطرق صناعية .

وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠) .

شرح المفردات

التبوّأ : النزول فى المكان ، ومنه المباءة للمنزل، والمراد من الدار المدينة ، والمراد بالحاجة الحسد والغيظ ، وأوتوا : أى أعطى المهاجرون دون الأنصار ، ويؤثرون : أى يقدمون ويفضلون ، والخصاصة : الحاجة من خصاص البيت ؛ وهو ما يبقى بين عيدانه من الفُرَج وكذا كل خُرْق فى مُنْخل أو باب أو سحاب أو برقع ، والشح : اللؤم ؛ وهو أن تكون النفس كزّة حريصة على المنع، قال شاعرهم :

يمارس نفسا بين جنبيه كَزَّةً إذا همّ بالمعروف قالت له مهلا

قال الراغب : البخل : المنع ، والشح : الحال النفسية التى تقتضى ذلك ، وغِلًّا أى حسدا وبغضا .

المعنى الجملى

بعد أن بين مصارف الفىء فيما سلف ، وذكر أنه لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين ـ ذكر هنا أنه أراد بهم فقراء المهاجرين الذين لهم هذه الصفات السامية ، والمناقب الرفيعة ، ثم مدح الأنصار ساكنى المدينة وبالغ فى مدحهم فذكر لهم هذه الفضائل :

(١) إنهم يحبون المهاجرين .

(٢) إنهم ليس فى قلوبهم حقد ولا حسد لهم .

(٣) إنهم يفضلونهم على أنفسهم ويعطونهم ماهم فى أشد الحاجة إليه ، وما ذاك إلا لأن الله عصمهم من الشح المردى والبخل المهلك ، الذى يدسى النفوس ويمنعها من اكتساب الخير وعمل البر.

ثم ذكر أن التابعين لهم بإحسان ، وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة ، يدعون لأنفسهم ومن سبقهم من المؤمنين بالمغفرة ، ويطلبون من الله ألا يجعل فى قلوبهم حقدا وحسدا لهم .

الإيضاح

(للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله) أى إنه أراد بهؤلاء الأربعة السالفين فقراء المهاجرين الذين اضطرهم كفار مكة إلى الخروج من ديارهم وترك أموالهم طلبا لمرضاة ربهم ونيلا لثوابه ونصرة لله ورسوله ، وإعلاء لشأن دينه .

(أولئك هم الصادقون) أى هؤلاء هم الصادقون فى إيمانهم ، إذ قد فعلوا مايدل على الإخلاص فيه والرغبة الصادقة من نيل المغفرة والكرامة عند ربهم ، فهم قد أُخرجوا من ديارهم ، وهى العزيزة على النفوس ، المحببة إلى القلوب .

بلادى وإن جارت علىّ عزيزة   وأهلى وإن ضنوا علىّ كرام

وتركوا الأموال والمال شقيق الروح ، وكثيرًا ما يُقتل المرء فى سبيل الذّود عنه ، وانتزاعه من أيدى غاصبيه ، وما فعلوا ذلك إلا لإعلاء منار الدين ، ورفعة شأنه ، وذيوع ذكره ، فحقّ لهم من ربهم النعيم المقيم ، وجزيل الثواب بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كفاء ما قاموا به من جليل الأعمال ، وعظيم الخلال .

روى أن الرجل منهم كان يعصِب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع ، وكان الرجل يتخذ منهم الحفيرة فى الشتاء ماله دثارٌ غيرها . وعن سعيد قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم « بشّروا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة ، يدخلون الجنة قبل الناس بنصف يوم ، وذلك خمسمائة سنة » أخرجه أبوداود .

ثم مدح سبحانه الأنصار وأثنى عليهم حين طابت نفوسهم عن الفىء إذ جعل المهاجرين دونهم فقال :

(والذين تبوءوا الدار والإيمـان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) أى والذين سكنوا المدينة ، وأشربت قلوبهم حب الإيمان من قبل هجرة أولئك المهاجرين ، لهم صفات كريمة ، وشيم جليلة تدل على كرم النفس ، ونبل الطباع ، فهم :

(١) يحبون المهاجرين ويتمنون لهم من الخير ما يتمنون لأنفسهم ، وقد آخى رسول الله بينهم وبينهم ، وأسكن المهاجرين فى دور الأنصار معهـم ، ونزل بعض الأنصار عن بعض نسائهم للمهاجرين ، طيّبة بذلك نفوسهم ، قريرة به أعينهم .

روى أحمد عن أنس قال : «قال المهاجرون : يارسول الله مارأينا مثل قوم قدمنا عليهم حسن مواساة فى قليـل ، ولا حسن بذل فى كثير ، لقد كفونا المئونة ، وأشركونا فى المهيأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال لا ، ماأثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم» .

وقال عمر : وأوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصى بالأنصار خيراً ، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم .

(٢) لايطمحون إلى شىء مما أعطيه أولئك المهاجرون من الفىء وغيره .

روى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم ، فقالوا أموالنا بيننا قطائع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوغير ذلك ؟ قالوا وما ذاك يارسول الله ؟ فقال : هم قوم لايعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم التمر ، فقالوا نعم يارسول الله » .

(٣) يقدمون ذوى الحاجة على أنفسهم ، ويبدءون بسواهم قبلهم ، حتى إن من كان عنده امرأتان ينزل عن إحداهما ويزوجها واحداً من المهاجرين .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن أبى هريرة قال : « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا ، فقال عليه الصلاة والسلام : ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله ؟ فقال أبو طلحة أنا يارسول الله ، فذهب إلى أهله ؛ فقال لامرأته أكرمى ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت والله ماعندى إلا قوت الصبية ، قال إذا أراد الصبية العشاء فنوّميهم ، وتعالَىْ فأطفئى السراج ونطوى الليلة لضيف رسول الله ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة وأنزل فيهما (وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) » .

ثم بين سوء عاقبة الشح فقال :

(ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) أى ومن يحفظوا أنفسهم من الحرص على المال والبخل به فأولئك هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه .

أخرج الترمذى وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس مرفوعا « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان نار جهنم فى جوف عبد أبدًا ، ولا يجتمع الإيمان والشح فى قلب عبد أبدًا » .

وأخرج أحمد والبخارى فى الأدب ومسلم والبيهقى عن جابر عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح قد أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » .

وروى الأموى عن ابن مسعود أن رجلا أتاه فقال : إنى أخاف أن أكون قد هلكت ، قال وماذاك ؟ قال : سمعت الله يقول (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) وأنا رجل

شحيح لا أكاد أخرج من يدى شيئاً ؛ فقال ابن مسعود : ليس ذاك الذى ذكر الله تعالى ، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلما ، ولكن ذلك البخل ، وبئس الشىء البخل — ففرق بين الشح والبخل .

وليس المراد من تقوى الشح الجود بكل مايملك ؛ فقد روى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « برئ من الشح من أدى الزكاة ، وقرى الضيف ، وأعطى فى النائبة » .

(والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) أى والتابعون للفريقين بالإحسان إلى يوم القيامة يقولون : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، واغفر لإخواننا فى الدين الذين سبقونا بالإيمان .

قال ابن أبى ليلى : الناس على ثلاث منازل : المهاجرين ، والذين تبوءوا الدار والإيمان ، والذين جاءوا من بعدهم ، فاجتهد ألا تخرج من هذه المنازل .

وفى هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ، لأنه جعل لمن بعدهم حظا فى الفىء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم ، ومن أبغضهم أو أبغض واحدا منهم أو اعتقد فيهم شرا فلاحق له فى الفىء .

وإنما بدءوا فى الدعاء بأنفسهم لقوله صلى الله عليه وسلم : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » .

(ولا تجعل فى قلوبنا غلاًّ للذين آمنوا) أى ويدعون الله ألا يجعل فى قلوبهم حسدا وحقدا للمؤمنين جميعا .

والحقد والحسد هما رأس كل خطيئة ، وينبوع كل معصية ، فهما يوجبان سفك الدماء والبغى والظلم والسرقة ، وسائر أنواع الفجور .

ونحو الآية قوله فى سورة براءة «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ» .

وفى الآية إيماء إلى وجوب محبة مَن تقدمهم من المؤمنين ومراعاة حقوقهم لإخوتهم فى الدين والسبق بالإيمان .

(ربنا إنك رءوف رحيم) أى ربنا إنك عظيم الرأفة بعبادك ، كثير الرحمة لهم ، فأجب دعاءنا .

وفى الآية حثّ على الدعاء للصحابة ، وصفاء القلوب من بغض أحد منهم .

وعن ابن عمر أنه سمع رجلا وهو يتناول بعض المهاجرين فقرأ عليه : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ » ثم قال : هؤلاء المهاجرون ، أفمنهم أنت ؟ قال لا ، ثم قرأ عليه « والذين تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ » الآية ، ثم قال هؤلاء الأنصار فأنت منهم ؟ قال لا ، ثم قرأ عليه : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ » الآية ، ثم قال : أفمن هؤلاء أنت ؟ قال أرجو ، قال : ليس من هؤلاء من سبّ هؤلاء .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ، بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ

ا كْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكَ إِنِّى أَخَافُ اللّٰهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)
فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِى النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) .

شرح المفردات

نافقوا : أى أظهروا غير ما أضمروا ، وبالغوا فى إخفاء عقائدهم ، والإخوان : الأصدقاء واحدهم أخ ، والأخ من النسب جمعه إخوة ، لننصرنكم : أى لنعاونكم ، ليولُنَّ الأدبار : أى ليفرُّن هار بين ، أشد رهبة فى صدورهم من الله : أى إنهم يخافونكم فى صدورهم أشد من خوفهم لله ، لايفقهون : أى لايعلمون عظمته تعالى حتى يخشوه حق خشيته ، جميعاً : أى مجتمعين ، محصنة : أى بالدروب والخنادق وغيرها ، جُدُر : أى حيطان واحدها جدار ، بأسهم : أى حربهم ، وشتى : أى متفرقة ، واحدها شتيت ، وبال أمرهم : أى سوء عاقبتهم ، من قولهم : كلأٌ وبيل : أى وخيم سيئ العاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما حدث لبنى النضير من الاستسلام خوفا ورهبة ، لما قذفه فى قلوبهم من الرعب ، ثم ذكر مصارف الفىء التى تقدمت — أردفه بذكر ماحصل من مناصحة المنافقين عبد الله بن أُبىّ ابن سلول ورفقته لأولئك اليهود ، وتشجيعهم لهم على الدفاع عن ديارهم ومحاربتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قصه الله علينا وفصّله أتمّ تفصيل ، ليكون فى ذلك عبرة لنا ؛ وإنا لنشاهد كل يوم أن الناس يضل بعضهم بعضا ويغوونهم ثم يتركونهم فى حيرة من أمرهم لا يجدون لهم مخلصا مما وقعوا فيه .

أخرج ابن إسحق وابن المنذر وأبونُعيم عن ابن عباس: أنها نزلت فى رهط من

بنى عوف ، منهم عبد الله بن أبىّ ابن سلول ، ووديعة بن مالك ، وسُوَيد وداعس بعثوا إلى بنى النضير بما قصه الله علينا فى كتابه .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً) . تقدم أن قلنا فى غير موضع إن مثل هذا الأسلوب (ألم تر) يراد به التعجيب من حال المحدّث عنه ، وأن أمره غاية فى الغرابة ، وموضع للدهشة والحيرة .

فهؤلاء قوم من منافقى المدينة لهم أقوال تخالف مايبطنون ، منهم عبد الله بن أبىّ وشيعته رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شرع يحاصر بنى النضير ويقاتلهم ، فأرسلوا إليهم يقولون لهم : إنا قادمون لمساعدتكم بخيلنا وَرَجْلنا ، ولا نُسْلمكم لمحمد أبداً ؛ فجِدّوا فى قتالهم ، ولا تهنوا فى الدفاع عن دياركم وأموالكم ، حتى إذا اشتد الحصار ، وأوغل المسلمون فى الدخول فى ديارهم ، وتحريق نخيلهم ، وهدم بيوتهم رأى بنو النضير أن تلك الوعود كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وأنهم بين أمرين :

(١) الاستسلام وقبول حكم محمد عليهم .

(٢) إفناؤهم وتخريب ديارهم .

وقد أدخل الله الرعب فى قلوبهم ، فاختاروا الدنيّة ، وقبلوا الجلاء عن الديار واستبان لهم أن المنافقين كانوا كاذبين لاعهود لهم ولا وعود ، كما هو دأبهم فى كل زمان ومكان .

وبعد أن كذبهم على سبيل الإجمال كذبهم تفصيلا ليزيد تعجيب المخاطب من حالهم ، وليبين له مبلغ خبث طويّتهم ، وشدة جبنهم ، وفزعهم من القتال ، وأن هذه الوعود أقوال كاذبة لا كنتها ألسنتهم وقلوبهم منها براء فقال :

(لئن أخرجوا لايخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لاينصرون) أى لئن أُخرجَ بنو النضير من ديارهم فأجْلوا عنها لايخرج معهم المنافقون الذين وعدوهم بالخروج من ديارهم ، ولأن قاتلهم محمد صلى الله عليه وسلم لاينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولُّن الأدبار منهزمين عن محمد وأصحابه ، هار بين منهم خاذلين لهم ، ثم لاينصر الله بنى النضير .

وهذا إخبار بالغيب ، ودليل من دلائل النبوة ، ووجه من وجوه الإعجاز ، فإنه قد كان الأمر كما أخبر الله قبل وقوعه .

والخلاصة — إن بنى النضير أُخرجوا فلم يخرج معهم المنافقون ، وقوتلوا فما نصروهم ، ولو كانوا قد نصروهم لتركوا النصرة وانهزموا وتركوا أولئك اليهود فى أيدى الأعداء .

ثم ذكر السبب فى عدم نصرتهم لليهود والدخول مع المؤمنين فى قتال فقال :

(لأنتم أشدّ رهبة فى صدورهم من الله) أى إنهم يخافونكم أشد مما يخافون الله ، ومن ثمّ لم يجرءوا على الدخول معكم فى قتال ، وأسلموا اليهود يحكم عليهم الرسول بما يشاء .

ثم ذكر سبب الرهبة لهم من دون الله فقال :

(ذلك بأنهم قوم لايفقهون) أى وكانت هذه الرهبة لكم فى صدورهم أشد من رهبتهم لله من أجل أنهم لايفقهون قدر عظمته تعالى ، فهم لذلك يستخفّون بمعاصيه ولا يرهبون عقابه قدر رهبتهم لكم .

ونحو الآية قوله : « إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً » .

ثم أكد جبن اليهود والمنافقين وشديد خوفهم منهم فقال :

(لايقاتلونكم جميعا إلا فى قرًى محصنة أو من وراء جُدُر) أى إن هؤلاء اليهود

والمنافقين قد ألقى الرعب فى قلوبهم، فلا يواجهونكم بقتال مجتمعين، لأن الخوف والهلع بلغا منهم كل مبلغ ، بل يقاتلونكم فى قرى محصنة بالدروب والخنادق ونحوها ، ومن وراء الجدر والحيطان وهم محاصَرون .

ثم بين أن من أسباب هذا الجبن والخوف ـ التخاذل وعدم الاتحاد حين اشتداد الخطوب فقال :

(بأسهم بينهم شديد) أى بعضهم عدوّ لبعض ، فلا يمكن أن يقاتلوا عدوا لهم وهم فى تخاذل وانحلال ، ومن ثم استكانوا وذلوا .

وفى هذا عبرة للمسلمين فى كل زمان ومكان ، فإن الدول الإسلامية ما هدّ كيانها ، وأضعفها أمام أعدائها إلا تخاذلها أفرادا وجماعات ، وانفراط عِقْد وحدتها ، ومن ثم طمع الأعداء فى بلادهم ودخلوها فاتحين وأذاقوا أهلها كئوس الذل والهوان وفرّقوهم شَذَرَ مذَرَ ، وجعلوهم عبيدا أذلاء فى بلادهم والتهموا ثرواتهم ، ولم يبقوا لهم إلا النُّفاية وفُتات الموائد . ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ، وعسى الله أن يأتى بالفتح أو نصر من عنده ، فيستيقظ المسلمون من سُباتهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، فيستعيدوا سابق مجدهم ، وتدول الدولة لهم :

فيوما لنا ويوما علينا ويوما نُساء ويوما نُسرّ

ثم زاد ما سلف توكيدا فقال :

(تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) أى إنك أيها الرسول إذا رأيتهم مجتمعين خِلْتهم متفقين وهم مختلفون غاية الاختلاف ، لما بينهم من إحَن وعداوات ، فهم لا يتعاضدون ولا يتساندون ولا يرمون عن قوس واحدة .

وفى هذا تشجيع للمؤمنين على قتالهم ، وحثّ للعزائم الصادقة على حربهم ، فإن المقاتل متى عرف ضعف خصمه ازداد نشاطا وازدادت حميّته وكان ذلك من أسباب نصرته عليه .

ثم بين أسباب النفرة وانحلال الوحدة فقال :

(ذلك بأنهم قوم لايعقلون) أى ذلك التفرق من جرّاء أن أفئدتهم هواء ، فهم قوم لايفقهون سر نظم هذه الحياة ، ولا يعلمون أن الوحدة هى سر النجاح ، ومن ثم تخاذلوا وتفرقت كلمتهم ، واختلف جمعهم ، واستهان بهم عدوهم ، ودارت عليهم الدائرة .

ثم أرشد إلى أن هؤلاء ليسوا بيدع فى الكافرين ، بل قد سبقهم غيرهم ممن كان حقه أن يكون عبرة لهم فقال :

(كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم) أى مثل بنى النضير مثل اليهود من بنى قَيْنُقَاع الذين كانوا حول المدينة وغزاهم النبى صلى الله عليه وسلم يوم السبت فى شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة وأجلاهم إلى أذرعات بالشام ، وذاقوا سوء عاقبة كفرهم إثر عصيانهم قبل وقعة بنى النضير التى كانت سنة أربع للهجرة .

والخلاصة — إنهم قد كانت لهم أسوة ببنى قينقاع ، فجروحهم لاتزال دامية ، وآثار خذلانهم لاتزال بادية للعيان ، وقد كان من حق ذلك أن يكون عبرة ماثلة لهم ولكنهم قوم لايفقهون ولا يعتبرون بالمثلات التى يرونها رأى العين .

(ولهم عذاب أليم) لا يقادر قدره ، ولا يعرف كنهه سوى علام الغيوب .

ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلا آخر أشد نكالا وأوجع إيلاما فقال :

(كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين) أى مثل هؤلاء المنافقين الذين وعدوا اليهود من بنى النضير النصرة إن قوتلوا ، أو الخروج معهم إن أخرجوا ، ومثل بنى النضير فى غرورهم بوعودهم وإسلامهم إياهم فى أشد حاجتهم إليهم وإلى نصرتهم — كمثل الشيطان الذى غرّ إنسانا ووعده النصرة عند الحاجة إليه إذا هو كفر بالله واتبعه وأطاعه ، فلما احتاج إلى نصرته أسلمه وتبرأ منه وقال : إنى أخاف الله رب العالمين إذا أنا نصرتك ، لئلا يشركنى معك فى العذاب .

والخلاصة — إن مثل اليهود فى اغترارهم بمن وعدوهم النصرة من المنافقين بقولهم لهم : لئن قوتلتم لننصرنكم ، ولما جدّ الجدّ واشتد الحصار والقتال تخلّوْا عنهم وأسلموهم للهلْكة — كمثل الشيطان إذ سوّل للإنسان الكفر والعصيان ، فلما دخل فيه تبرأ منه وتنصل وقال : « إنى أخاف الله رب العالمين » .

ولا تجد مثلا أشد وقعا على النفوس ، ولا أنكى جُرحا فى القلوب من هذا المثل ، لمن اعتبر وادّكر ، ولكنهم قوم لا يعقلون .

ثم ذكر عاقبة الناصح والمنصوح فقال :

(فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدَين فيها ، وذلك جزاء الظالمين) أى فكان عاقبة الآمر بالكفر والداخل فيه — الخلود فى النار أبدا ، وهكذا جزاء الظالمين لأنفسهم بالكفر كيهود بنى النضير والمنافقين الذين وعدوهم بالنصرة .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) .

شرح المفردات

ما قدمت : أى أىَّ شىءٍ قدمت ، وغد : هو يوم القيامة ؛ سمى بذلك لقربه ، فكل آت قريب كما قال : وإن غداً لناظره قريب . نسوا الله : أى نسوا حقه فتركوا أوامره ، ولم ينتهوا عن نواهيه ، فأنساهم أنفسهم : أى أنساهم حظوظ أنفسهم فلم يقدموا لها خيرا ينفعها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر المضلين من المنافقين ، وبيّن أن ما يقولون غير ما يبطنون ، وأن مثلهم كمثل الشيطان فى الإغواء والإضلال ، ثم أعقبه بذكر الضالين من بنى النضير وكيف خُدِعوا بتلك الوعود الخلاّبة التى كانت عليهم وبالا ونكالا ، وكان فيها سوء حالهم فى دنياهم ودينهم - شرع ينصح المؤمنين بلزوم التقوى ، وأن يعملوا فى دنياهم ما ينفعهم فى أخراهم حتى ينالوا الثواب العظيم ، والنعيم المقيم ، وألا ينسَوْا حقوق الله ، فيجعل الرين على قلوبهم ، فلا يقدموا لأنفسهم ما به رشادهم وفلاحهم .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله) فافعلوا ما به أمر ، واتركوا ما عنه نهى وزجر .

(ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ) أى وانتظروا ماذا قدمتم لآخرتكم مما ينفعكم يوم الحساب والجزاء ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكنهم من توقع العذاب حيارى .

(واتقوا الله) تكرير للتوكيد ، لما يستدعيه الحال من التنبيه والحث على التقوى التى هى الزاد فى المعاد .

ثم وعد وأوعد و بشر وأنذر فقال :

(إن الله خبير بما تعملون) أى إنه تعالى عليم بأحوالكم لايخفى عليه شىء من شئونكم ، فراقبوه فى جليل أعمالكم وحقيرها ، واعلموا أنه سبحانه سيحاسبكم على النقير والقطمير ، والقليل والكثير ، ولا يفوته شىء من ذلك .

ثم ضرب لهم الأمثال تحذيرا و إنذارا فقال :

(ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) أى ولا يكن حالكم كحال قوم تركوا العمل بحقوق الله التى أوجبها على عباده ، فران على قلوبهم وأنساهم العمل

الصالح الذى ينجيهم من عقابه ، فضلوا ضلالا بعيدا ، فجازاهم بما هم له أهل ، وما هم مستحقون ، جزاء وفاقا لما دسّوا به أنفسهم وأوقعوها فى المعاصى والآثام ، ومن ثم حكم عليهم بالهلاك فقال :

(أولئك هم الفاسقون) أى أولئك هم الذين خرجوا من طاعة الله فاستحقوا عقابه يوم القيامة .

ونحو الآية قوله تعالى : « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

خطب أبو بكر فقال : أمَا تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله عزّ وجل فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بتوفيق الله عز وجل ، إن قوما جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله عز وجل أن تكونوا أمثالهم فقال : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدّموا فى أيام سلفهم ، وخلَوْا بالشِّقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن ، وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لاتفنى عجائبه ، فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه . إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال تعالى : « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » لاخير فى قول لايراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لاينفق فى سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهْلُه حلمَه ، ولا خير فيمن يخاف فى الله لومة لائم .

ثم وازن بين من يعمل الحسنات ، ومن يجترم السيئات فقال :

(لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) أى لايستوى الذين نسوا الله فاستحقوا الخلود فى النار ، والذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود فى الجنة .

ونحو الآية قوله تعالى : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » وقوله : « أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟ » .

ثم بين عدم استوائهما فقال :

(أصحاب الجنة هم الفائزون) أى أصحاب الجنة هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه .

وفى هذا تنبيه إلى أن الناس لفرط غفلتهم وقلة تفكرهم فى العاقبة ، وتهالكهم على إيثار العاجلة ، واتباعهم للشهوات الفانية ، كأنهم لايعرفون الفرق بين الجنة والنار ، وشاسع البون بين أصحابهما ، وأن الفوز لأصحاب الجنة ، فمن حقهم أن يعلموا ذلك بعد أن نبّهوا له ، كما تقول لمن عقّ أباه : هو أبوك - تجعله كأنه لايعرف ذلك فتنبهه إلى حق الأبوة الذى يقتضى البر والعطف .

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) .

شرح المفردات

خاشعا : أى منقادا متذللا ، متصدعا : أى متشققا ، خشية الله : أى خوفه وشديد عقابه ، الغيب : ما غاب عن الحسّ من العوالم التى لانراها ، والشهادة : ما حضر من الأجرام المادية التى نشاهدها ، القدوس : أى المنزه عن النقص ، السلام : أى الذى سلم الخلق من ظلمه إذ جعلهم على نُظُمٍ كفيلة برقيهم ، المؤمن : أى واهب الأمن ، فكل مخلوق يعيش فى أمن ؛ فالطائر فى جوّه، والحية فى وكرها، والسمك فى البحر تعيش كذلك ، ولا يعيش قوم على الأرض مالم يكن هناك حراس يحرسون قراهم وإلا هلكوا ، العزيز : أى الغالب على أمره ، الجبار : أى الذى جبر خلقه على ما أراد وقسرهم عليه ، المتكبر : أى البليغ الكبرياء والعظمة ، سبحان الله عما يشركون : أى تنزه ربنا عما يصفه به المشركون ، الخالق : أى المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة ، والبارئ : أى المبرز لها على صفحة الوجود بحسب السنن التى وضعها والغرض الذى خلقت له ، المصوّر : أى الموجد للأشياء على صورها ومختلف أشكالها كما أراد ، الأسماء الحسنى. أى الأسماء الدالة على محاسن المعانى التى تظهر فى مظاهر هذا الوجود ، فنظم هذه الحياة و بدائع مافيها دليل على كمال صفاته ، وكمال الصفة يرشد إلى كمال الموصوف .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فرق المضلين من المنافقين والضالين من اليهود وغيرهم وأمر عباده المؤمنين بالتقوى ، استعدادا ليوم القيامة ــ ذكر هنا أن لهم مرشدا عظيما وإماما هاديا هو القرآن الذى يجب أن تخشع لهيبته القلوب ، وتتصدع لدى سماع عظاته الأفئدة ، لما فيه من وعد ووعيد وبشارة وإنذار وحكم وأحكام ، فلو أنا ألهمنا الجبل عقلا وفَهِمه وتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل ، فكيف بكم

أيها البشر لاتلين قلوبكم ولا تخشع وتتصدع من خشيته ؟ وقد فهمتم عن الله أمره ، وتدبرتم كتابه .

وبعد أن وصف القرآن بالعظم أتبعه بوصف عظمة المنزِّل للقرآن ذى الأسماء الحسنى الذى يخضع له ما فى السموات والأرض وينقادون لحكمه وأمره ونهيه .

الإيضاح

(لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدّعا من خشية الله) أى لو جعل فى الجبل عقل كما جعل فيكم أيها البشر ، ثم أنزل عليه القرآن لخشع وخضع وتشقق من خشية الله .

وهذا تمثيل لعلوّ شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر ، وفيه توبيخ للإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه حين قراءة القرآن وتدبر ما فيه من القوارع التى تذل لها الجبال الراسيات .

(وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) أى وهذه الأمثال التى أودعناها القرآن وذكرناها فى مواضعها التى ضربت لأجلها ، واقتضاها الحال من نحو قوله : « وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » وقوله : « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » وقوله : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى » الآية — جعلناها تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ؛ فمن الناس من وفقه الله واهتدى بها إلى سواء السبيل ، وفاز بما يرضى ربه عنه ، ومنهم من أعرض عنها ونأى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، وأدخله فى سقر ، وما أدراك ماسقر ، لاتبقى ولاتذر .

ثم وصف سبحانه نفسه بجليل الصفات ، التي هي سر العظمة والجلال ، لخالق الأرض والسموات فقال :

(هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم) أى إنه لا ربّ غيره ، ولا إله فى الوجود سواه ، فكل مايعبد من دونه من شجر أو حجر أو صنم أو ملك فهو باطل ، وهو يعلم جميع الكائنات الشاهدة لنا والغائبة عنا ، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السموات ، وهو ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما .

(هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون) أى هو الله المالك لجميع الأشياء ، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة ، المنزه عن كل عيب ونقص ، الذى أمن خلقه أن يظلمهم ، وهو الرقيب عليهم كما قال «وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »وقال : «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» والذى عز كل شىء فقهره ، وغلب الأشياء بعظمته وجبروته ، فلا تليق الجبرية إلا له ولا التكبر إلا لعظمته كما ورد فى الصحيح : « العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبته » تنزه ربنا عما يقوله المشركون من الصاحبة والولد فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

(هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى) أى هو الله الخالق لجميع الأشياء المبرز لها إلى عالَم الوجود على الصفة التى أرادها كما قال : « فِى أَىِّ صُورَةٍ مَاشَاءَ رَكَّبَكَ » ، وله الصفات الحسنى التى وصف بها نفسه لا يشركه فيها أحد سواه .

(يسبح له مافى السموات والأرض) تقدم الكلام فى هذا فى مثل قوله : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِنْ لاَتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو الشديد الانتقام من أعدائه ، الحكيم فى تدبير خلقه ، وصرفهم فيما فيه صلاحهم ، فهو كامل القدرة كامل العلم .

اللهم وفقنا للهدى والرشاد فى يوم المعاد .

خلاصة ماحوته السورة الكريمة من المقاصد والأغراض

(١) تنزيه الله لنفسه عن كل نقص .

(٢) ذكر غلبة الله ورسوله لأعدائه .

(٣) تقسيم الفىء الذى أخذ من بنى النضير مع ذكر المصارف التى يوضع فيها .

(٤) أخلاق المنافقين المضلين ، وأخلاق أهل الكتاب الضالين مع ضرب المَثَل لهم .

(٥) ذكر نصائح المؤمنين .

(٦) إعظام شأن القرآن و إجلال قدره .

(٧) وصف الله سبحانه نفسه بأوصاف الجلال والكمال .

سورة الممتحنة

هى مدنية ، وآيها ثلاث عشرة ، نزلت بعد الأحزاب .

ومناسبتها لما قبلها :

(١) إنه ذكر هناك موالاة الذين نافقوا للذين كفروا من أهل الكتاب ، وذكر هنا نهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ، لئلا يشبهوا المنافقين .

(٢) إنه ذكر هناك المعاهدين من أهل الكتاب ، وذكر هنا المعاهدين من المشركين .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ، تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) .

شرح المفردات

تلقون إليهم بالمودة : أى ترسلون إليهم أخبار الرسول بسبب المودة التى بينكم وبينهم ، يخرجون الرسول وإياكم : أى من مكة ، أن تؤمنوا بالله : أى لأجل

إيمانكم بالله ، ضل : أى أخطأ ، وسواء السبيل : أى الطريق المستوى وهو طريق الحق ، إن يثقفوكم : أى يظفروا بكم ، وأصل الثقف : الحذق فى إدراك الشيء وفعله ومنه رجل ثقف لقِف ، بالسوء : أى بما يسوءكم من القتل والأسر والشتم ، وودّوا لو تكفرون : أى وتمنوا كفركم ، أرحامكم : أى قراباتكم ، يفصل بينكم : أى يفرق بينكم من شدة الهول .

المعنى الجملى

روى البخارى ومسلم وغيرهما «أن سارّة التى كانت مغنية ونائحة بمكة أتت المدينة تشكو الحاجة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب أن يعطوها مايدفع حاجتها ، فأعطوها نفقة وكسوة وحملوها ، فجاءها حاطب بن أبى بلْتَعَة (مولى عبد الله بن حُميد بن عبد العُزّى) فأعطاها عشرة دنانير وكتب معها كتابا إلى أهل مكة : هذا صورته :

من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حِذْركم ، فأخبره جبريل به ، فبعث إليها عليًّا وعماراً وطلحة والزُّبير والمِقْداد وأبا مرثِد وكانوا فرسانا . وقال : انطلقوا حتى تأتوا روْضة خاخ (موضع) فإن بها ظعينة (امرأة) معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة ، فخذوه منها وخلوها فإن أبت فاضربوا عنقها ، فأدركوها فجحدت وحلفت ، فهمّوا بالرجوع ، فقال علىّ : والله ما كَذِبنا ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلّ سيفه وقال لها : أخرجى الكتاب ، أو ألقى ما معك من الثياب ، فأخرجته من عقاص شعرها ، فأحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا وقال له : ما حملك عليه ؟ فقال : يارسول الله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهلهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتنى النسب فيهم

أن أصطنع إليهم يدا يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن دينى، فصدّقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل عذره ، فقال عمر : دعنى يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنه شهد بدرا ، ومايدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ماشئتم فقد غفرت لكم ، فنزلت : «يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ » الآية .

الإيضاح

(يٰأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّى وعدوكم أولياء) أى لاتجعلوا الكفار أنصارا وأعوانا لكم .

ثم فسر هذه الموالاة فقال :

(تلقون إليهم بالمودة) أى تبلغونهم أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم التى لاينبغى لأعدائه أن يطلعوا عليها من خطط حربية ، أو أعمال نافعة فى نشر دينه وبثّ دعوته بسبب مابينكم وبينهم من مودة .

ثم ذكر أن مما يمنع هذا الاتخاذ أمرين :

(١) (وقد كفروا بما جاءكم من الحق) أى وقد كفروا بالله ورسوله وكتابه الذى أنزله عليكم، فكيف بكم بعد هذا تجعلونهم أنصارا وتسرّون إليهم بما ينفعهم ويضر رسولكم ، ويعوق نشر دينكم .

(٢) (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) أى يخرجون الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ولم يكن لهم جريرة ولا جُرم سوى ذلك .

ونحو الآية قوله : «وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» وقوله: « الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ » .

وفى هذا تهييج لهم على عداوتهم وعدم موالاتهم ، ثم زادهم تهييجا بقوله :

(إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى) أى إن كنتم خرجتم مجاهدين فى سبيلى ، باغين مرضاتى عنكم ، فلا توالوا أعدائى وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم حنقا عليكم وسخطا لدينكم .

ثم توعد من يفعل ذلك وشدد النكير عليه وذكر ما فيه أعظم الزجر له فقال :

(ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) أى ومن يفعل هذه الموالاة و يبلغ أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم لأعدائه فقد جار عن قصد الطريق التى توصل إلى الجنة ورضوان الله تعالى .

ثم ذكر أموراً أخرى تمنع موالاتهم فقال :

(١) (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء) أى إن يظفر بكم هؤلاء الذين تسرون إليهم بالمودة يكونوا حربا عليكم و يفعلوا بكم الأفاعيل .

(٢) (و يبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) أى و يمدوا أيديهم وألسنتهم لقتالكم وأذاكم وسبّكم وشتمكم ، فكيف ترونهم على هذه الحال وتتخذونهم أصدقاء وأولياء .

(٣) (وودّوا لو تكفرون) أى وتمنوا لو تكفرون بربكم ، لتكونوا على مثل الذى هم عليه ، فعداوتهم لكم كامنة وظاهرة .

والخلاصة — إن هؤلاء يودون لكم كل ضر وأذًى فى دينكم ودنياكم ، فكيف بكم بعد هذا تمدون إليهم حبال المودة ، وتوثقون عرا الإخاء ، فهذا مما لا يرشد إليه عقل ، ولا يهدى إليه دين .

ثم ذكر أن ماجعلوه سببا من المحافظة على الأهل والولد لاينبغى أن يقدّم على شئون الدين فقال :

(لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة) أى لن تنفعكم يوم القيامة أقاربكم

ولا أولادكم الذين توالون المشركين لأجلهم ، وتتقربون إليهم محاماة عنهم — فتدفع عنكم عذاب الله إن عصيتموه فى الدنيا وكفرتم به .

ثم بين السبب فى عدم نفعهم فقال :

(يفصل بينكم) أى يفرّق الله بينكم و بينهم بما يكون من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر كما قال : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

ثم أوعد من يفعل ذلك فقال :

(والله بما تعملون بصير) أى والله بأعمالكم ذو بصر بها ، لايخفى عليه شىء منها ، فهو محيط بها جميعها ، ومجازيكم عليها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، فاتقوا الله فى أنفسكم واحذروه .

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) .

شرح المفردات

الأسوة : (بضم الهمزة وكسرها وبهما قرئ) من يؤتسى به ، كالقدوة لمن يقتدى به والجمع أُسى ، برآء واحدهم برىء كظرفاء وظريف : أى متبرئون ومنكرون لما تعملون ، وما تعبدون : أى الأصنام والكواكب وغيرها ، البغضاء : أى البغض والكراهة ، لا تجعلنا فتنة للذين كفروا : أى لاتسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لانحتمله ، من قولهم : فتن الفضة : أى أذابها ، يرجو الله : أى يؤمل ثوابه ، واليوم الآخر : أى مجيئه ، ومن يتولّ : أى ومن يعص النصيحة .

المعنى الجملى

بعد أن أنكر عليهم موالاتهم للكافرين ، وذكر لهم الموانع التى تمنع من ذلك كإخراجهم من الديار ، وتمنى الكفر لهم، وصدهم عن هداية الدين وكفرهم بالرسول وبما جاء به ، وأنهم متى وجدوا سبيلا لأذاهم بقول أو فكر سلكوه غير آبهين لصلة رحم ولا قربى — أكد هنا ذلك فأمرهم أن يأتسوا بإبراهيم وأصحابه إذ تبرءوا من قومهم وعادوهم وقالوا لهم : إنا برآء منكم ، قال الفراء : يقول أفلا تأسيت ياحاطب بإبراهيم حين تبرأ من أهله ؟ لتعلم أن الحب فى الله والبغض فى الله من أوثق عرا الإيمان .

الإيضاح

(قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله) أى قد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة فى إبراهيم خليل الرحمن تقتدون به وبالذين معه من أتباعه المؤمنين حين قالوا لقومهم الذين

كفروا بالله وعبدوا الطاغوت : أيها القوم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد .

ثم فسر هذه البراءة بقوله :

(كفرنا بكم) أي جحدنا ما أنتم عليه من الكفر ، وأنكرنا عبادتكم ماتعبدون من دون الله ، فلانعتدّ بكم ولا بآلهتكم ، فإن ما أنتم عليه لا تقره العقول الراجحة ، ولا الأحلام الحصيفة ؛ فما قيمة الأحجار والأصنام التى تتخذونها معبودات ترجون منها النفع والضر « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » .

(وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا حتى تؤمنوا بالله وحده) أى وهانحن أولاء قد أعلنّا الحرب عليكم ، فلا هوادة بيننا وبينكم ، وسيكون هذا دأبنا معكم ، لانترككم بحال حتى تتركوا ما أنتم عليه من الشرك ، فتنقلب العداوة ولاية ، والبغضاء محبة .

(إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك) أى لكم فى إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا فى استغفار إبراهيم لأبيه ، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه .

وقد كان بعض المؤمنين يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأنزل الله عز وجل : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ، وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ؛ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » .

والخلاصة — لاتجاملوهم ولاتبدوا لهم الرأفة وتستغفروا لهم ، كما فعل إبراهيم لأبيه ، لأنه إنما استغفر له قبل أن يتبين له أنه عدو لله ، فلما مات على الكفر تبين

له ذلك ، فترك الاستغفار ، وأنتم قد استبانت لكم عداواتهم بكفرهم بالرسول ، وإخراجكم من الديار ، فلا ينبغى أن تستغفروا لهم .

(وما أملك لك من الله من شىء) أى وليس فى وسعى إلا الاستغفار لك ، ولا أستطيع أن أنفعك بأكثر من هذا ، فإن أراد الله عقوبتك على كفرك فلا أدفعها عنك .

ثم أخبر عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرءوا منهم ولجئوا إلى الله وتضرعوا إليه :

(ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) أى ربنا اعتمدنا عليك فى قضاء أمورنا ، ورجعنا إليك بالتوبة مما تكره إلى ماتحب وترضى ، ومصيرنا إليك يوم تبعثنا من قبورنا ، وتحشرنا إلى موقف العرض والحساب .

(ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا) قال قتادة : أى لاتظهرهم علينا فيفتتنوا بذلك، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحقٍّ هم عليه .

(واغفر لنا إنك أنت العزيز الحكيم) أى واستر لنا ذنوبنا بعفوك عنها ، إنك أنت الذى لايضام من لاذ بجنابه ، الحكيم فى تدبير خلقه ، وصرفه إياهم فيما فيه صلاحهم .

ثم أعاد ماتقدم مبالغة فى الحث على الائتساء بإبراهيم عليه السلام ومن معه .

(لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) أى لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة فى إبراهيم ومن آمن معه من أتباعه المؤمنين ، لمن كان منكم يرجو لقاء الله وجزيل ثوابه ، والنجاة فى اليوم الآخر .

وفى هذا تهييج إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعضّ عليهما بالنواجذ ، وبيان أنهما ملاك الأمر كله يوم العرض والحساب .

ثم أوعد على تركهما بقوله :

(ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) أى ومن أعرض عما ندبه الله إليه منكم

وأدبر واستكبر ، ووالى أعداء الله وألقى إليهم بالمودة فلا يضرنّ إلا نفسه ، فإن الله غنىّ عن إيمانه وطاعته ، بل عن جميع خلقه ، محمود بأياديه وآلائه عليهم.

ونحو الآية قوله تعالى : « إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ » .

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ، وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) .

شرح المفردات

عسى : كلمة تفيد رجاء حصول ما بعدها ، فإذا صدرت من الله فما بعدها واجب الوقوع ، أن تبروهم : أى تفعلوا البر والخير لهم ، وتقسطوا إليهم : أى تعدلوا فيهم بالبر والإحسان ، المقسطين : أى العادلين ، وظاهروا : أى ساعدوا ، أن تولوهم : أى أن تكونوا أولياء وأنصاراً لهم .

المعنى الجملى

لما نهاهم عن موالاة الكفار وإلقاء المودة إليهم ، وضرب لهم المثل بإبراهيم وقومه — حملهم ذلك على أن يظهروا براءتهم من أقربائهم ، والتشدد فى معاداتهم

ومقاطعتهم ، وكان ذلك عزيزاً على نفوسهم ، ويتمنون أن يجدوا المخلص منه — أردف ذلك سبحانه بأنه سيغير من طباع المشركين ، ويغرس فى قلوبهم محبة الإسلام ، فيتمّ التوادّ والتصافى بينكم وبينهم .

وفى ذلك إزالة للوحشة من قلوب المؤمنين ، وتطييب لقلوبهم ، وقد أنجز الله وعده ، فأتاح المسلمين فتح مكة ، فأسلم قومهم ، وتم لهم ما كانوا يريدون من التحابّ والتوادّ ، ثم رخص لهم فى صلة الذين لم يقاتلوهم من الكفار ولم يخرجوهم من ديارهم ، ولم يظاهروا على إخراجهم .

روى أحمد فى جماعة آخرين عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قُتَيلة بنت عبد العُزّى على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا — صناب (صباغ يتخذ من الخردل والزبيب) وأقِطٍ وسمن وهى مشركة ؛ فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخل بيتها ، حتى أرسلت إلى عائشة رضى الله عنها أن تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا فسألت فأنزل الله « لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ » الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها وتُدخلها بيتها ؛ وقال الحسن وأبوصالح : نزلت الآية فى خزاعة وبنى الحرث بن كعب وكِنانة ومُزَينة وقبائل من العرب ، كانوا صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه .

الإيضاح

(عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة، والله قدير والله غفور رحيم) أى لعل الله يجعل بينكم وبين أعدائكم من كفار مكة محبة بعد البغض ، ومودة بعد النفرة ، وأُلْفَةً بعد الفرقة ، والله قدير على ما يشاء ، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة ، غفور لخطيئة من ألقى إليهم بالمودة إذا تابوا منها ، رحيم بهم أن يعذبهم بعد التوبة .

وقد تمّ ذلك بفتح مكة حين دخل المشركون فى دين الله أفواجا ، وتم بينهم التصافى والتصاهر ، وكان بينهم أتم ما يكون من وثيق الصلات كما قال تعالى : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا) وقال : (هُوَ الذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

ثم أباح لهم صلة الذين لم يقاتلوهم من الكفار فقال :

(لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) أى لاينهاكم الله عن الإحسان إلى الكفار الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، ولم يعاونوا على إخراجكم ، وهم خزاعة وغيرهم ممن كانوا عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك القتال والإخراج من الديار ، فأمر الله رسوله بالبر والوفاء لهم إلى مدة أجلهم .

ثم زاد الأمر إيضاحا و بياناً فقال :

(إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم) أى إنما ينهاكم عن موالاة الذين ناصبوكم العداوة فقاتلوكم وأخرجوكم أو عاونوا على إخراجكم كمشركى مكة ، فإن بعضهم سعوا فى إخراج المؤمنين ، و بعضهم أعان المخرجين .

ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال :

(ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) لأنهم تولوا غير الذين يجوز لهم أن يتولوهم ، ووضعوا ولايتهم فى غير موضعها ، وخالفوا أمر الله فى ذلك .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ، وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ، ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ (١١) .

شرح المفردات

فامتحنوهن : أى فاختبروهن بما يغلب به على ظنكم موافقة قلوبهن لألسنتهن فى الإيمان ، علمتموهن : أى ظننتموهن ، إلى الكفار ، أى إلى أزواجهن الكفار أجورهن : أى مهورهن ، وعصم : واحدها عصمة، وهى مايعتصم به من عقد وسبب ، والكوافر : واحدتهن كافرة : فعاقبتم : أى فكانت العقبى لكم ، أى الغلبة والنصر لكم ، حتى غنمتم منهم .

المعنى الجملى

الكافر المعاند لايخلو من أحد أحوال ثلاثة :

(١) أن يستمر على عناده ، و إلى مثله أشار بقوله : « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ » الآية .

(٢) أن يرجى منه أن يترك العناد ، وإلى مثله أشار بقوله : « عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً » .

(٣) أن يترك العناد ويستسلم ، وإلى ذلك أشار بقوله : « إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ » الآية .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن) أى إذا جاءكم أيها المؤمنون النساء اللاتى نطقن بالشهادة ولم يظهر منهن مايخالف ذلك — مهاجرات من بين الكفار فاختبروا حالهن ، وانظروا هل توافق قلوبهن ألسنتهن ، أوهن منافقات ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للممتحَنة : بالله الذى لا إله إلا هو ، ماخرجتِ من بغض زوج ، بالله ماخرجتِ رغبة بأرض عن أرض ، بالله ماخرجت التماساً لدنيا ، بالله ماخرجت إلا حبًّا لله ورسوله .

ثم ذكر جملة معترضة بين ماقبلها وما بعدها ليتبين أن الامتحان يفيد معرفة الظاهر فحسب فقال :

(الله أعلم بإيمانهن) منكم وهو يتولى السرائر ، وفى هذا بيان أنه لاسبيل إلى ما تطمئن إليه النفس من الإحاطة بحقيقة إيمانهن ، فإن ذلك مما استأثر الله بعلمه .

(فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار) أى فإن غلب على ظنكم إيمانهن بالحلف وغيره مما يورث اطمئنان قلوبكم على إسلامهن ، فلا تردوهن إلى أزواجهن المشركين .

ثم بيّن العلة فى النهى عن إرجاعهن بقوله :

(لاهنّ حلّ لهم ولاهم يحلون لهن) أى لا المؤمنات حِلٌّ للكفار ، ولا الكفار يحلون للمؤمنات .

(وآتوهم ما أنفقوا) أى وأعطوا أزواجهن مثل ما أنفقوا من المهور .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم عام الحديبية أمر عليًّا أن يكتب بالصلح فكتب : باسمك اللهم ، هذا ماصالح عليه محمد بن عبدالله سهيلَ بن عمرو . اصطلحوا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، تأمن فيه الناس ويكف بعضهم عن بعض على أن من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده إليه ، ومن جاء قريشا من محمد لم يرده إليه ، وأن بيننا عَيْبَة مكفوفة ، وأن لا إسلال ولا إغلال ، وأن من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه . فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبا جندل بن سهيل ، ولم يأت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ من الرجال إلا ردّه فى مدة العهد وإن كان مسلما ، ثم جاءت المؤمنات مهاجرات ، وكانت أولاهن أم كلثوم بنت عُقْبة بن أبى مُعَيْط ، فقدم أخواها عمار والوليد فكلماه فى أمرها ليردها إلى قريش فنزلت الآية ، فلم يردها عليه الصلاة والسلام ، ثم أنكحها زيد بن حارثة .

وعن مقاتل أنه جاءت امرأة تسمى سَبَيْعة بنت الحرث الأسلمية مؤمنة ، وكانت تحت صيفى بن الراهب وهو مشرك من أهل مكة فطلب ردّها فأنزل سبحانه الآية فلم يردها وأعطاه ما أنفق ، وتزوجها عمر رضى الله عنه .

ومن هذا تعلم أن الآية بيّنت أن العهد الذى أعطى كان فى الرجال دون النساء ومن ثم لم يردهن حين جئن مؤمنات .

(ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن) أى ولا إثم عليكم ولا حرج فى نكاح هؤلاء المؤمنات المهاجرات ، بشرط أن تتعهدوا بالمهور ، وتلتزموا بأدائها .

وإنما جاز هذا لأن الإسلام حال بينهن وبين أزواجهن الكفار ، فكان من المصلحة أن يكون لهن عائل من المؤمنين يكفل أمر أرزاقهن .

(ولا تمسكوا بعصم الكوافر) أى إنه لاينبغى أن يكون علاقة من علاقات

الزوجية بين المؤمنين ونسائهم المشركات الباقيات فى دار الشرك ، فلا يمنع نكاح إحداهن نكاح خامسة أو نكاح أختها ما دامت فى العدة ، لأنه لاعدة لهن .

(واسألوا ما أنفقتم) أى واسألوا الكفار مهور نسائكم اللاحقات بهم إذا ارتددن ولحقن بهم .

(وليسألوا ما أنفقوا) أى وليسألكم الكفار مهور نسائكم المهاجرات إليكم ، والمراد أن عليكم أن تؤدوا لهم ذلك .

(ذلكم حكم الله يحكم بينكم) أى ذلكم الذى ذكر هو حكم الله فاتبعوه ، يحكم به بينكم فلا تخالفوه .

(والله عليم حكيم) فلا يشرع إلا ماتقتضيه الحكمة البالغة .

(وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) أى وإن ذهبت أزواجكم مرتدات إلى دار الشرك ولم يعطوكم المهور اللاتى دفعت لهن ، ثم ظفرتم بالمشركين وانتصرتم عليهم فأعطوا الذين ذهبت أزواجهم من الغنيمة مثل ما أنفقوا .

روى عن ابن عباس أنه يعطى الذى ذهبت زوجته من الغنيمة قبل أن تخمّس أى قبل أن تقسم أخماسا ، كما هى القاعدة فى تقسيم الغنائم كما تقدم فى سورة الأنفال .

(واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) أى وخافوا الله الذى أنتم به مصدقون ، فأدّوا فرائضه ، واجتنبوا نواهيه .

يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاللّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ، وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ، فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) .

شرح المفردات

يبايعنك : أى يلتزمن لك الطاعة ، ولا يقتلن أولادهن : أى ولا يئدن البنات والمراد بالبهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن: الولد الذى كانت ألصقته بزوجها كذبا ، والافتراء : الكذب ، فى معروف: أى فى أمر برّ وتقوى ، فبايعهن : أى فالتزم لهن ضمان الثواب إذا وفين بهذه الأشياء .

المعنى الجملى

روى البخارى عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه بهذه الآية : « يٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ – إلى قوله : غَفُورٌ رَحِيمٌ » فمن أقرت بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « قد بايعتك » كلاماً ، ولا والله ما مست يده يد امرأة فى المبايعة قط ، ما بايعهن إلا بقوله : قد بايعتكِ على ذلك .
وروى أحمد عن أميمة بنت رقية التيمية قالت: «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما فى القرآن : أَلاَّ نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا – حتى بلغ – وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فقال : فيما استطعتن وأطقتن ، قلنا الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، قلنا يا رسول الله : أَلاَ تصافحنا ؟ قال إنى لا أصافح النساء ، إنما قَوْلِى لامرأة واحدة قولى لمائة امرأة » .

الإيضاح

أى أيها النبى إذا جاءك النساء المؤمنات مقدمات لك الطاعة ، ملتزمات ألا يشركن بالله شيئاً من صنم أو حجر ، ولا يسرقن من مال الناس شيئاً ، ولا يزنين ، ولا يئدن البنات كما كنّ يفعلن ذلك فى الجاهلية ، ولا يلصقن أولاد

الأجانب بأزواجهن كذبا وبهتانا ، ولا يعصينك فيما تأمرهن به أو تنهاهن عنه كالنَّوْح وتمزيق الثياب وجزّ الشعر وشق الجيوب وخَمْش الوجوه ، وألا تخلو امرأة بغير ذى رحم محرم - فبايعهن على ذلك ، والتزم لهن الوفاء بالثواب إن هن أطعنك فى كل ذلك ، واطلب لهن المغفرة من الله ، إنه هو الغفور الرحيم لمن إذا وفَّيْن بما بايعن عليه .

وعن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة قالت : « جاءت فاطمة بنت عُتْبَة تبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ عليها : أَلاَّ يشْرِكْنَ باللهِ شيئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ » الآية ، قال فوضعت يدها على رأسها حياء فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة : أقرّى أيتها المرأة ، فوالله ما بايعنا إلا على هذا ، قالت فنعم ، فبايعها بالآية » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) .

شرح المفردات

غضب الله عليهم : أى طردهم من رحمته ، من الآخرة . أى من ثوابها ونعيمها ، من أصحاب القبور . أى من رجوع موتاهم إليهم ، لأنهم لا يعتقدون ببعث ولا نشور .

المعنى الجملى

نهى سبحانه أول السورة عن موالاة المشركين ، وذكر الموانع التى تمنع من موالاتهم ، ثم أوعد على ذلك ، ولما كان الأمر فى ذلك جدّ خطير فى سياسة الدولة

الإسلامية ونشر الملة ـ كرر النهى عن موالاة الكافرين مرة أخرى ، يهودا كانوا أو نصارى ، ليكون عظة وذكرى لحاطب بن أبى بلتعة ومن نحا نحوه ممن يفضلون توثيق الصلات الدنيوية على مصلحة الدعوة الدينية ، ويجعلون شئون الدنيا مقدمة على شئون الدين .

روى أن قوما من فقراء المؤمنين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المسلمين ، ليصيبوا من ثمارهم فنزلت الآية .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لاتتولوا قوما غضب الله عليهم) أى لاتتخذوا اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم واستحقوا الطرد من رحمته ـ أولياء لكم وأصدقاء تسرون إليهم بما يضر نشر الدعوة ، و يحول دون تقدم شئون الملة .

ثم بيّن أوصافهم ومعتقداتهم فقال :

(قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) أى قد يئسوا من خير الآخرة وثوابها ، لعنادهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم المبشَّرَ به فى كتابهم ، المؤيدَ بالآيات البينات ، والمعجزات الباهرات ؛ فهم قد أفسدوا آخرتهم بتكذيبهم له وعلموا أن لاسبيل لهم لنيل نعيمها ، كما يئس الكفار من بعث موتاهم ، لأنهم لايعتقدون ببعث ولا نشور .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله .

خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

(١) النهى عن موالاة المشركين مع ذكر أسباب ذلك .

(٢) ضرب المثل بقصص إبراهيم وقومه .

(٣) امتحان النساء المؤمنات المهاجرات وعدم إرجاعهن إلى دار الكفر .

(٤) مبايعة النساء المؤمنات فى دار الإسلام .

(٥) تأكيد النهى عن موالاة المشركين ، حرصا على شئون الملة ، ونشر الدعوة .

سورة الصف

هى مدنية وعدد آيها أربع عشرة، نزلت بعد التغابن .

ومناسبتها ما قبلها - أنها اشتملت على الحث على الجهاد والترغيب فيه ، وفى ذلك تأكيد للنهى الذى تضمنته السورة السابقة من اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين .

روى أحمد بسنده عن عبد الله بن سلاَم قال . تذاكرنا أيُّكمْ يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسأله . أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم منا أحد ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلينا رجلا فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة . (الصف) كلها .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤) .

شرح المفردات

(لِمَ) أى لأىّ شىء تقولون قد فعلنا كذا وكذا ، وأنتم لم تفعلوا ؟ والمراد بذلك التأنيب والتوبيخ على صدور هذا الكذب منهم ، كبر : أى عظم ، والمقت : أشد البغض وأعظمه ، ورجل مقيت وممقوت إذا كان يبغضه كل أحد ، والمرصوص :

الحكم، قال المبرد: تقول رصصت البناء إذا لاأمتَ بين أجزائه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة .

المعنى الجملى

قال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددِنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه إيمان بالله لاشك فيه ، وجهاد لأهل معصيته الذين جحدوا الإيمان به ، و إقرار برسالة نبيّه ، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فأنزل الله الآية .

الإيضاح

(سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم) أى شهد له بالربوبية والوحدانية والقدرة وغيرها من صفات الكمال جميع ما فى السموات والأرض ، وهو الغالب على أمره ، القاهر فوق عباده ، الحكيم فى تدبير خلقه وَفق ما سنَّه من السنن ، وأرشد إليه من ضروب الهداية .

و بعد أن وصف نفسه بصفات الكمال ذكر ما يلحق المخلوقين من صفات النقص فقال :

(يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لاتفعلون؟) أى لأىّ شئ ولأىّ غرض تقولون لوددِنا أن نعمل كذا وكذا من أفعال الخير حتى إذا طلب منكم ذلك كرهتم ولم تفعلوا ؟

والتوبيخ والإنكار موجه إلى عدم فعلهم ما وعدوا به ، و إنما وُجّه إلى القول لبيان أن معصيتهم مُزْدَوِجة ، وأنهم عملوا جُرْمين . فهم تركوا فعل الخير . وقد وعدوا بفعله .

وبهذه الآية استدل السلف على وجوب الوفاء بالوعد، وبما ثبت فى السنة من قوله صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف، وإذا حدَّث كذب، وإذا اؤتمن خان » .

ثم بين شدة قبح ذلك وأنه بلغ الغاية فى بغض الله له فقال :

(كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) أى عظم جُرْمًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون .

ذاك أن الوفاء بالوعد دليل على كريم الشيم، وجميل الخصال، وبه تكون الثقة بين الجماعات، فترتبط برباط المودة والمحبة حين يتعامل بعض أفرادها مع بعض، ويكونون يدا واحدة فيما انتوَوْا من الأعمال، والعكس بالعكس، فإذا فشا فى أمة خلف الوعد قلّت الثقة بين أفرادها، وانحلت عرا الروابط بينهم وأصبحوا عقدا متناثرا لا ينتفع به، ولا يخشى منهم عدوّ إذا اشتدت الأزمات، وعظمت الخطوب، لما يكون بينهم من التواكل، وعدم ائتمان بعضهم بعضا .

وبعد أن ذمّ المخالفين فى أمر القتال وهم الذين وعدوا ولم يفعلوا، مدح الذين قاتلوا فى سبيله وبالغوا فيه فقال :

(إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) أى إن الله يحب الذين يصفّون أنفسهم حين القتال ولا يكون بينهم فُرَج فيه كأنهم بنيان متلاحم الأجزاء، كأنه قطعة واحدة قد صُبَّت صبا، وعلى هذه الطريقة تسير الجيوش فى العصر الحاضر .

وسر هذا أنهم إذا كانوا كذلك زادت قوتهم المعنوية، وتنافسوا فى الطعان والنزال، والكرّ والفرّ، إلى ما فى ذلك من إدخال الرَّوْع والفزع فى نفوس العدو، إلى ما لحسن النظام من إمضاء العمل بالدقة والإحكام، ومن ثم أُمرنا بتسوية الصفوف فى الصلاة، وألا يجلس المصلى فى صف خلفى إلا إذا اكتمل ما فى الصف

الأمامى ، وهكذا تراعى الأمم فى عصرنا الحاضر النظام فى كل أعمالها ، فى أكلها ونومها ورياضتها وتربية أولادها ، بحيث لايطغى عمل على عمل ، فللجدّ وقت لايعدوه ، وللرياضة وقت آخر ، وللنوم كذلك ، ولهذا لايوجد تواكل ولا تراخٍ فى الأعمال ، ولا تخاذلٌ فيها ، ومن ثم جاء فى الأثر .

« أفضل الأعمال إلى الله أدومها و إن قلّ » .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ؟ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) .

شرح المفردات

تؤذوننى : أى تخالفون أمرى بترك القتال ، زاغوا : أى أصرّوا على الزيغ والانحراف عن الحق الذى جاء به موسى عليه السلام ، أزاغ الله قلوبهم : أى صرفها عن قبول الحق ، الفاسقين : أى الخارجين عن الطاعة ومنهاج الصدق المصرّين على الغواية ، وأحمد : من أسماء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال حسان :

صلّى الإله ومن يحفّ بعرشه والطيّبون على المبارك أحمد

المعنى الجملى

بعد أن أنّب التاركين للقتال الهاربين منه بقوله: « لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟» ذكر هنا أن حالهم يشبه حال بنى إسرائيل مع موسى حين ندبهم إلى قتال الجبارين

بقوله: « يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » فلم يمتثلوا أمره وعصوه أشد العصيان، و« قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ » وقالوا: « فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » وأصروا على ذلك وآذوه أشدّ الإيذاء، فوبخهم على ذلك بما جاء فى الآية الكريمة، وقد صرفهم الله عن قبول الحق وألحق بهم الضيم والذل فى الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى.

ومثلهم أيضا فى عصيانهم مثل بنى إسرائيل حين قال لهم عيسى: إنى رسول الله، وجاءهم بالبينات والمعجزات الدالة على صدقه وقال: إنى مبشر برسول سيأتى من بعدى يسمى أحمد، فعصوه وكذبوه ولم يمتثلوا أمره.

الإيضاح

(وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم؟) أى واذكر لقومك خبر عبده ورسوله موسى بن عمران كليم الله حين قال لقومه: لم تؤذوننى وتخالفون أمرى فتتركوا القتال وأنتم تعلمون صدقى فيما جئتكم به من رسالة ربى؟ وفى هذا تسلية لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فيما أصابه من قومه الكافرين ومن غيرهم، وأمر له بالصبر، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « رحمة الله على موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » كما أن فيه نهيا للمؤمنين أن ينالوا من النبى صلى الله عليه وسلم أو يوصلوا إليه أذى كما جاء فى قوله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ».

ثم بين عاقبة عصيانهم ومخالفة أمره بقوله:

(فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) أى فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، وأصرّوا على ذلك، صرف الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الحيرة والشك، جزاء

وفاقا لما دسّوا به أنفسهم من الذنوب والآثام ، ومخالفة أوامر رسوله ، وانهما كهم في الطغيان والمعاصي، فران على قلوبهم ، وطمس على أعينهم ، فلم تنظر إلى ماتشاهد من دليل ، ولا تبصر ماترى من برهان كما قال : « وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

ثم أكد إزاغته لقلوبهم وبيّن علتها بقوله :

(والله لايهدى القوم الفاسقين) أى والله لايوفق لإصابة الحق مَن اختار الكفر ونبذ طاعة الله ورسوله ، بما يرينَ على قلبه من الضلالة ، فيحرمه النظر إلى الأدلة التى نصبت فى الكون ، وجعلت منارًا للعقول ، وشفاء للصدور .

(وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدىَّ من التوراة) أى واذكر لقومك ما قال عيسى ابن مريم لقومه : ياقوم إنى مرسَل إليكم من الله، وإنى مصدق بالتوراة وبكتب الله وأنبيائه جميعا من تقدم منهم ومن تأخر .

(ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) أى وداعيا إلى التصديق بهذ الرسول الكريم الذى جاءت البشارة به فى التوراة ، فقد جاء فى الفصل العشرين من السِّفْر الخامس منها : أقبل الله من سينا ، وتجلى من ساعير ، وظهر من جبال فاران ، معه الربوات الأطهار عن يمينه . « سينا مهبط الوحى على موسى ، وساعير مهبط الوحى على عيسى ، وفاران جبال مكة مهبط الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم » .

وفيها فى الفصل الحادى عشر من هذا السفر : ياموسى إنى سأقيم لبنى إسرائيل نبيًّا من إخوتهم مثلك ، أجعل كلامى فى فيه ، ويقول لهم ما آمره به ، والذى لايقبل قول ذلك النبى الذى يتكلم باسمى ، أنا أنتقم منه ومن سبطه .

وكذلك جاء فى الإنجيل ماهو بشارة به — فى إنجيل يوحنا فى الفصل الخامس عشر . قال يسوع المسيح : إن الفارَقْلِيط روح الحق الذى يرسله أبى ، يعلمكم كل شىء .

وفيه أيضا : قال المسيح من يحفظ كلمتى يحبنى ، وأبى يحبه ، وعنده يتخذ المنزلة ، كلمتكم بهذا لأنى لست عندكم بمقيم ، والفارقليط روح القدس الذى يرسله أبى هو يعلمكم كل شىء ، وهو يذكركم كل ماقلت لكم ، أستودعكم سلامى ، لاتقلق قلوبكم ولا تجزع ، فإنى منطلق وعائد إليكم ، لو كنتم تحبونى تفرحون بمضيِّ إلى الأب .

وفيه أيضا : إن خيرا لكم أن أنطلق لأبى ، لأنى إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط فإذا انطلقت أرسلته إليكم ، فإذا جاء فهو يوبخ العالَم على خطيئته ، وإن لى كلاما كثيرا أريد قوله ، ولكنكم لاتستطيعون حمله ، ولكن إذا جاء روح الحق ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ، ويخبركم بكل مايأتى ، ويعرفكم جميع ما للأب .

(والفارقليط لفظ يؤذن بالحمد ، فسره بعضهم بالحمَّاد وبعضهم بالحامد ، ففى مدلوله إشارة إلى اسمه عليه السلام أحمد) كما لايخفى على من كشف الله تعالى غشاوة التعصب عن عينيه .

(فلما جاءهم بالبينات قالوا هـذا سحر مبين) أى فحين جاءهم أحمد المبشَّرُ به بالأدلة الواضحة ، والمعجزات الباهرة ، فاجئوه بالتكذيب والإعراض عنه استكبارا وعنادا وقالوا : إن ماجئت به ماهو إلا ترّهات وأباطيل ، وسحر واضح لاشك فيه .

ونحو الآية قوله تعالى : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ » الآية .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ؟ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ

وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) .

شرح المفردات

الإسلام : الاستسلام والانقياد والخضوع لله عز وجل ، والمراد من إبطال نور الله بأفواههم إرادتهم إبطال الإسلام ، بنحو قولهم هـذا سحر مفترى ، والله متم نوره : أى والله متم الحق ومبلغه غايته ، بالهدى : أى بالقرآن ، ودين الحق : أى بالملة السمحة ، ليظهره : أى ليعليه ، على الدين كله : أى على سائر الأديان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الجاحدين لنبوته صلى الله عليه وسلم من المشركين وأهل الكتاب لما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مفترى — أردف ذلك ببيان أنهم دعوا إلى الإسلام والخضوع لخالق الخلق ومبدع العالم ، وأقيمت لهم على ذلك الأدلة ونصب لهم المنار ، لكنهم ظلموا أنفسهم وجحدوا النور الواضح ، والبرهان الساطع .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفمّ طعم الماء من سقم

ثم بين أن السبب فى ذلك هو سوء استعدادهم وتدسيتهم لأنفسهم ، وأن مثلهم فى صد الدعوة عن الدين مثل من يريد إطفاء نور الشمس بالنفخ بفيه ، وأنى له بذلك ؟ فالله متم نوره ، ومكمّل دينه مهما جدَّ المشركون فى إطفائه ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم ما جاء إلا بما فيه هداية البشر وسعادتهم فى معاشهم ومعادهم ، وبالدين الحق الذى لاتجد العقول مطعنا فيه ، ولا طريقا إلا الاعتراف بما جاء به من حِكَم وأحكام .

الإيضاح

(ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ؟) أى ومن أشد ظلما وعدوانا ممن اختلق على الله الكذب وجعل له أندادا وشركاء وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص ؟

وتلخيص المعنى — أىّ الناس أشد ظلما ممن يدعى إلى الإسلام والخضوع ، فلا يجيب الداعى بل يفترى على الله الكذب بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحرا ؟ والمراد أنه أظلم من كل ظالم ، لأنه قد أهدر عقله ، وركب هواه ، وألقى الأدلة وراءه ظهريا .

ثم بين سبب ظلمهم وفساد عقائدهم فقال :

(والله لا يهدى القوم الظالمين) أى والله لا يرشد الظالمين لأنفسهم إلى ما فيه صلاحهم ورشادهم ، لأنهم دسّوها باجتراح السيئات ، وارتكاب الموبقات ، فختم على قلوبهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، فلا تفهم الأدلة المنصوبة فى الكون ، ولا تهتدى بهدى العقل ، بل تسير فى عماية ، وتمشى فى ظلام دامس لا تلوى على شىء .

ثم ذكر جِدَّهم واجتهادهم فى إبطال الدين ، واستهزأ بما اتخذوه من الوسائل فقال:

(يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم) أى إن مثلهم فى مقاومتهم لدعوة الدين ، وجِدّهم فى إخماد نوره — مثل من ينفخ فى الشمس بفيه ليطفئ نورها ، ويحجب ضياءها ، وأنى له ذلك ؟ فما هو إلا كمن يضرب فى حديد بارد ، أو كمن يريد أن يضرم النار فى الرماد ، أو كمن يريد أن يصطاد العَنْقاء .

أرى العنقاء تكبر أن تصادا فعانِدْ من تطيق له عنادا

(والله متم نوره ولو كره الكافرون) أى والله معلن الحق ومظهر دينه ، وناصر محمدا عليه الصلاة والسلام على من عاداه ولو كره ذلك الكافرون به .

روى عن ابن عباس « أن الوحى أبطأ أربعين يوما فقال كعب بن الأشرف : يا معشر يهود أبشروا ، أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتم نوره ، فحزن الرسول صلى الله عليه وسلم فنزلت : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ » الآية .

ثم بين العلة فى إخماد دعوتهم ، وأنه لاسبيل لقبولها لدى العقول فقال :

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) أى هو الله الذى أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم بالقرآن والملة الحنيفية ، ليعليه على جميع الأديان المخالفة له ، وقد أنجز الله وعده ، فلم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام .

وإنما قال أوّلا : ولو كره الكافرون ، وقال ثانيا ولو كره المشركون ، لأنه ذكر أولا النور وإطفاءه فاللائق به الكفر ، لأنه ستر وتغطية ، وذكر ثانيا الحاسدين للرسول وأكثرهم من قريش ، فناسب ذكر المشركين .

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ : مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ، فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)

شرح المفردات

التجارة هنا : مايقدمه المرء من عمل صالح ، لينال به الثواب كما قال سبحانه : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ » طيبة : أى طاهرة مستلذة ، جنات عدن : أى بساتين إقامة وخلود ، قريب : أى عاجل وهو فتح مكة ، وحوارىّ الرجل : صفيه وخليله ، وأنصار الله : أى الناصرون لدينه ، فأيدنا : أى قوّينا وساعدنا ، على عدوهم : أى الكفار ، ظاهرين : أى غالبين .

المعنى الجملى

بعد أن حث فى الآيات السابقة على الجهاد فى سبيله ، ونهاهم أن يكونوا مثل قوم موسى فى التواكل والتخاذل ، إذ قالوا له : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قاعدون ، ونهاهم أيضا عن أن يكونوا مثل قوم عيسى فى العصيان بعد أن أتى لهم بالأدلة الباهرة على صدق نبوته — ذكر هنا أن الإيمان بالله والجهاد بالمال والنفس فى سبيله تجارة رابحة ، فإن المجاهد ينال الفوز العاجل ، والثواب الآجل ، فيظفر بالنصرة فى الدنيا والغلبة على العدو وأخذ الغنائم وكرائم الأموال ، ويحظى فى الآخرة بغفران الذنب ، ورضوان الرب ، والكرامة فى جنات الخلود والإقامة ، ولا فوز أعظم من هذا .

ثم ضرب لهم مثلا بقوم عيسى فقد انقسموا فرقتين : فرقة آمنت به وهم حواريه ، وفرقة كفرت به وهم البقية الباقية منهم ، فأمد الله المؤمنين بروح من عنده ، فتم لهم الفوز والنصر على الكافرين ، وغلبوهم بإذن الله كما هى سنة الله فى البشر كما قال : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » وقال : « إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عـذاب أليم) أى يأيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله : ألا أدلكم على صفقة رابحة ، وتجارة نافعة ، تنالون بها الربح العظيم ، والنجح الخالد الباقى .

وهذا أسلوب يفيد التشويق والاهتمام بمـا يأتى بعده ، كما تقول: هل أدلك على عالم عظيم ذى خلق حسن ، وعلم فياض ؟ هو فلان ، فيكون ذلك أروع فى الخطاب وأجلب لقبوله .

ثم بين هذه التجارة بقوله :

(تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) أى اثبتوا على إيمـانكم ، وأخلصوا لله العمل ، وجاهدوا بالأنفس والأموال فى سبيل الله بنشر دينه ، وإعلاء كلمته .

والجهاد ضروب شتى : جهاد للعدو فى ميدان القتال لنصرة الدين ، وجهاد للنفس بقهرها ومنعها عن شهواتها التى ترديها ، وجهاد بين النفس والخَلْق بترك الطمع فى أموالهم والشفقة عليهم والرحمة بهـــم ، وجهاد فيما بين المرء والدنيا بألا يتكالب على جمع حطامها ، وألا ينفق المـال إلا فيما تجيزه الشرائع ، وتقره العقول السليمة .

(ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أى هذا الإيمـان والجهاد خير لكم من كل شىء فى الدنيا من نفس ومال وولد ، إن كنتم من أهل الإدراك والعلم بوجوه المنافع وفهم المقاصد ، فإن الأمور إنمـا تتفاضل بغاياتها ونتائجها .

ولهذه التجارة فوائد عاجلة وأخرى آجلة ، وقد فصـل كلا الأمرين وقدم الثانية فقال :

(يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة

فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم) أى إن فعلتم ذلك فآمنتم بالله وصدقتم رسوله ، وجاهدتم فى سبيله — ستر لكم ذنوبكم ومحاها ، وأدخلكم فراديس جناته وأسكنكم مساكن تطيب لدى النفوس ، وتقرّ بها العيون فى دار الخلد الأبدى ، وهذا منتهى ماتسمو إليه النفوس من الفوز الذى لافوز بعده .

ثم ذكر الفوز العاجل فى الدنيا فقال :

(وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) أى ولكم على هذا فوز فى الدنيا بنصركم على عدوكم ، وفتحكم للبلاد ، وتمكينكم منها حتى تدين لكم مشارق الأرض ومغاربها .

وقد أنجز الله وعده ، فرفعت الراية الإسلامية على جميع المعمور من العالم فى زمن وجيز لم يعهد التاريخ نظيره ، وامتلكوا بلاد القياصرة والأباطرة ، وساسوا العالم سياسة شهد لهم بفضلها العدو قبل الصديق .

ثم أمرهم بأن يكونوا أنصار الله فى كل حين ، فلايتخاذلوا ولا يتوا كلوا ، فيكتب لهم النصر على أعدائهم كما فعل حواريو عيسى فقال :

(يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله) أى يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، فارفعوا شأن دينه ، وأعلوا كلمته ، كما فعل الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم : من أنصارى إلى الله ؟ قالوا له : نحن أنصار الله وأنصار دينه .

وقصارى ذلك — كونوا أنصار الله فى جميع أعمالكم وأقوالكم ، وأنفسكم وأموالكم ، كما استجاب الحواريون لعيسى .

(فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة) لما بلّغ عيسى عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه ، ووازره من الحواريين من وازره ، اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة أخرى إما جحوداً لرسالته ورميه هو وأمه بالعظائم كما فعل اليهود ، وإما بالغلو وإعطائه فوق ما أعطاه الله من مرتبة النبوة ؛

فمن قائل إنه ابن الله ، ومن قائل إنه ثالث ثلاثة ، الأب والابن وروح القدس ، ومن قائل إنه الله .

(فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) أى فنصرنا المؤمنين على من عاداهم ، وأمددناهم بروح من عندنا على مقتضى سنتنا « والعاقبة للمتقين » فغلبوا أعداءهم وظهروا عليهم كما قال « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » فلله الحمد على ما أعطى ، والمنة على ما أنعم ، وصل ربنا على محمد وآله .

ما جاء فى أثناء السورة من موضوعات

(١) اللوم والتعنيف على مخالفة القول للعمل .

(٢) البشارة بمحمد على لسان عيسى .

(٣) محمد صلى الله عليه وسلم أرسل بالهدى والدين الحق .

(٤) التجارة الرابحة عند الله هى الإيمان والجهاد فى سبيله .

(٥) الأمر بنصرة الدين كما نصر الحواريون دينهم .

سورة الجمعـــة

مدنية وعدد آيها إحدى عشرة ، نزلت بعد الصف .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه ذكر فى السورة قبلها حال موسى مع قومه وأذاه لهم ، ناعياً عليهم ذلك ، وذكر فى هذه حال الرسول صلى الله عليه وسلم وفضل أمته ، تشريفاً لهم ، ليعلم الفرق بين الاثنين .

(٢) إنه حكى فى السورة قبلها قول عيسى : «وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ» وذكر هنا : (هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ) إشارة إلى أنه هو الذى بشر به عيسى .

(٣) لما ختم السورة قبلها بالأمر بالجهاد وسماه تجارة ، ختم هذه السورة بالأمر بالجمعة ، وأخبر أن ذلك خير من التجارة الدنيوية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) .

شرح المفردات

القدوس : المنزه عن النقائص المتصف بصفات الكمال ، الأميين : هم العرب ، واحدهم أمى نسبة إلى الأم التى ولدته ، لأنه على الحال التى ولد عليها لم يتعلم الكتابة والحساب ، فهو على الجبلّة الأولى ، يزكيهم: أى يطهرهم بتلاوة آياته ، وآخرين واحدهم آخر بمعنى غير ، لما يلحقوا بهم : أى لم يلحقوا بهم بعدوسيلحقون ؛ وهم من جاء بعد الصحابة إلى يوم الدين .

الإيضاح

(يسبح لله مافى السموات وما فى الأرض) أى كل مافى السموات والأرض ، إذا نظرت إليه دلّك على وحدانية خالقه ، وعظيم قدرته ، كما قال سبحانه : «وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» .

(الملك القدوس) أى هو المالك لما فى السموات والأرض المتصرف فيهما بقدرته وحكمته ، المنزه عن كل مالا يليق بجلاله وكماله .

(العزيز الحكيم) أى هو الغالب عباده المسخّر لهم بقدرته ، الحكيم فى تدبير شئونهم فيما هو أعلم به من مصالحهم ، ويوصلهم إلى سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

ثم وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بصفات المدح والكمال فقال :

(هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) أى هو الذى أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الأمة الأمية التى لاتقرأ ولاتكتب وهم العرب ، أخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنا أمةٌ أمّيّة لانكتب ولا نحسب» .

وهذا الرسول من جملتهم أى مثلهم ، ومع ذلك يتلو عليهم آيات الكتاب ،

ليجعلهم طاهرين من خبائث العقائد والأعمال ، ويعلمهم الشرائع والأمور العقلية التى تكمل النفوس وتهذبها ، وإلى ذلك أشار البوصيرى بقوله :

كفاك بالعلم فى الأمىّ معجزةً فى الجاهلية والتأديب فى اليُتْمِ

وتخصيص الأميين بالذكر لايدل على أنه لم يرسل إلى غيرهم فقد جاء العموم فى آيات أخرى كقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » وقوله : « قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً » وقوله : « لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » .

ومن حكمته تعالى أنه أرسله عربيا مثلهم ، ليفهموا ما أرسل به ويعرفوا صفاته وأخلاقه ، ليسهل اقتناعهم بدعوته .

وخلاصة ماسلف : أنه ذكر الغرض من بعثة هذا الرسول ، وأجملها فى أمور :

(١) أنه يتلو عليهم آيات القرآن التى فيها هدايتهم وإرشادهم لخير الدارين ، مع كونه أميا لا يكتب ولايقرأ ، لئلا يكون هناك مطعن فى نبوته ، بأن يقولوا إنه نقله من كتب الأولين كما أشار إلى ذلك بقوله : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » .

(٢) أنه يطهرهم من أدناس الشرك وأخلاق الجاهلية ، ويجعلهم منيبين إلى الله مخبتين إليه فى أعمالهم وأقوالهم ، لايخضعون لسلطة مخلوق غيره ، من ملك أو بشر أوحجر .

(٣) أنه يعلمهم الكتاب والحكمة : أى يعلمهم الشرائع والأحكام وحكمتها وأسرارها ، فلا يتلقون عنه شيئاً إلا وهم يعلمون الغاية منه ، والغرض الذى يفعله لأجله ، فيقبلون إليه بشوق واطمئنان ، وقد تقدم مثل هذا فى سورة آل عمران .

(وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) ذاك أن العرب قديماً كانوا على دين إبراهيم ، فبدلوا وغيروا واستبدلوا بالتوحيد شركا ، وباليقين شكا ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، فكان من الحكمة أن يبعث سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم

بشرع عظيم فيه هداية للبشر، وبيان ماهم فى حاجة إليه من أمور معاشهم ومعادهم ودعوتهم إلى مافيه رضوان ربهم، والتمتع بنعيم جناته.

ونهاهم عما يوجب سخطه ويقربهم إلى النار.

(وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) أى وبعثه فى غيرهم من المؤمنين إلى يوم القيامة وهم من جاءوا بعد الصحابة إلى يوم الدين من جميع الأمم كالفرس والروم وغيرهم.

روى البخارى عن أبى هريرة قال: «كنا جلوساً عند النبى صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه سورة الجمعة فتلاها، فلما بلغ «وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ» قال رجل يارسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فلم يكلمه حتى سأله ثلاثاً، قال وسلمان الفارسى فينا، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان وقال: «والذى نفسى بيده لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من هؤلاء».

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو ذوالعزة والسلطان، القادر أن يجعل هذه الأمة المستضعفة صاحبة النفوذ والقوة التى تنشر فى غيرها من الأمم روح العدل والنظام بإرسال رسول من أبنائها ينقذ الناس من الضلالة إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، وهو الحكيم فيما يفعل من تدبير أمور الخلق لما فيه خيرهم وفلاحهم.

ثم ذكر سبحانه أن إرسال هذا الرسول فضل منه ورحمة فقال:

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) أى وإرسال هذا الرسول إلى البشر مزكيا مطهراً لهم، هاديا معلما، فضل من الله وإحسان منه إلى عباده، يعطيه من يشاء ممن يصطفيه من خلقه بحسب مايعلمه من استعداده وصفاء نفسه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

وهو سبحانه ذو الفضل العظيم عليهم فى جميع أمورهم فى دنياهم وآخرتهم، فى معاشهم ومعادهم، فلا يجعلهم فى حيرة من أمرهم تنتابهم الشكوك والأوهام، ولا يجدون للخلاص منها سبيلا، ولا يجعل قويهم يبطش بضعيفهم ويغتصب أموالهم

ويسعى فى الأرض بالفساد ، ويهلك الحرث والنسل ، فيكون العالم ككرة تتقاذفها أكفّ اللاعبين ، فهو أرحم بعباده من أن يتركهم سدى همَلاً لاصلاح لهم فى دين ولا دنيا .

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ ، وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)

شرح المفردات

حمّلوا التوراة : أى عُلّموها وكُلّفوا العمل بها ، لم يحملوها : أى لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بما فى تضاعيفها ، والأسفار : واحدها سفر؛ وهو الكتاب الكبير ، هادوا : أى تهوّدوا وصاروا يهودا ، أولياء لله : أى أحباء له ، بما قدمت أيديهم : أى بسبب ما اجترحوه من الكفر والمعاصى .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت سبحانه التوحيد والنبوة ، وذكر أن الرسول بعث للأميين قال اليهود : إن الرسول لم يبعث لنا ، فرد الله عليهم مقالهم بأنهم لو فهموا التوراة حق

الفهم، وعملوا بما فيها، لرأوا فيها نعت الرسول والبشارة به، وأنه يجب عليهم اتباعه وما مثلهم فى حملهم للتوراة وتركهم العمل بها إلا مثل الحمار يحمل الكتب ولا يجديه حملها نفعا .

ثم رد عليهم مقالا آخر إذ قالوا نحن أحباء الله وأولياؤه وإنه لن يدخلنا النار إلا أياما معدودات ـ بأنه لو كان ما تقولونه حقا لتمنيتم الموت حتى تخلصوا من هذه الدار دار الأكدار، وتذهبوا إلى دار النعيم، وإنكم لن تفعلوا ذلك فأنتم كاذبون فيما تدّعون، ولم تفرون منه وهو ملاقيكم ولا محالة ؟ وهناك ترجعون إلى ربكم فينبئكم بما قدمتم من عمل ويجازيكم عليه، إن خيرا وإن شرا .

الإيضاح

(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) يقول سبحانه ذاما لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، ثم لم يعملوا بها : ما مثل هؤلاء إلا كمثل الحمار يحمل الكتب لايدرى ما فيها، ولا كنهَ ما يحمل، بل هم أسوأ حالا من الحُمُر، لأن الحمر لافهم لها، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها فيما ينفعهم، إذ حرّفوا التوراة فأوّلوها وبدلوها، فهم كما قال فى الآية الأخرى : « أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » .

وصفوة القول : إن هذا النبى الذى تقولون إنه أرسل إلى العرب خاصة، هو ذلك النبى المنعوت فى التوراة والمبشَّر به فيها، فكيف تنكرون نبوته، وكتابكم يحض على الإيمان به ؟ فما مثلكم فى حملكم للتوراة مع عدم العمل بما فيها إلا مثل الحمار يحمل الكتب ولا يدرى ما فيها، فأنتم إذ لم تعملوا بما فيها وهى حجة عليكم إلا مثل الحمار ليس له إلا ثِقْل الحمل من غير انتفاع له بما حمل .

ثم بين قبح هذا المثل وشديد وقعه على من يعقله ويتدبره فقال :

(بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله) أى ما أقبح هذا مثلا لهم ، لتكذيبهم بآيات الله التى جاءت على لسان رسوله لو كانوا يتدبرون ويتفكرون ، إذ لم يكن لهم ما يشبههم من ذوى العقول والحجا من ملك أو إنس ، بل لا شبيه لهم إلا ما هو أحقر الحيوان وأذله وهو الحمار .

ولا يُقيم على ضيم يراد به إلا الأذلاّن عَيْرُ الحىّ والوَتِدُ
هذا على الخسْف مربوطٌ برمّته وذا يُشجُّ فلا يرثى له أحدُ

(والله لا يهدى القوم الظالمين) لأنفسهم الذين دسّوها حتى أحاطت بهم الخطيئة وأعمت أبصارهم ورانت على قلوبهم ، فلم تر نور الحق ، ولم تشعر بحجة ولا برهان ، بل هى فى ظلام دامس لا تهتدى لطريق ، ولا تصل إلى غاية .

ولما كان من شأن من لم يعمل بالكتاب الذى أنزل إليه أن يكون محبًّا للحياة تاركا لكل ما ينفعه فى الآخرة قال آمرا رسوله أن يقول لهم :

(قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) أى أيها اليهود إن كنتم تزعمون أنكم على هدى من ربكم ، وأن محمدا وأصحابه على ضلالة ، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين ، إن كنتم صادقين فيما تزعمون ، وقد تقدم الكلام فى مثل هذه المباهلة (الملاعنة) لليهود فى سورة البقرة فى قوله : « قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » كما تقدمت مباهلة النصارى فى آل عمران فى قوله : « فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » ومباهلة المشركين فى قوله : « قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا » .

ثم أخبر بأنهم لن يتمنوه أبدا لما يعلمون من سوء أفعالهم وقبيح أعمالهم فقال :

(ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم) أى ولا يتمنونه أبدا لعلمهم بسوء أعمالهم لكفرهم بآيات الله وتدسيتهم أنفسهم بالمعاصى والشرور والآثام .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : « والذى نفسى بيده لايقولها أحد منكم إلا غصّ بريقه» : فلم يتمنَّ أحد لعلمهم بصدقه وأيقنوا أنهم لو تمنوه لماتوا لساعتهم ، وحق عليهم الوعيد ، وحل بهم العذاب الشديد .

(والله عليم بالظالمين) ولا يخفى ما فى هذا من شديد التهديد والوعيد .

(قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم) أى وماذا يجديكم الفرار من الموت ؟ ولماذا تمتنعون من المباهلة خوفا على الحياة ؟ فإنه سيلاقيكم البتة من غير صارف يلويه ، ولاعاطف يثنيه ، فإن كنتم على الحق فلا تحفلوا بالحياة ، فإن أيام الحياة مهما طال أمدها لابد من نفادها .

(ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم ترجعون بعد مماتكم إلى عالم غيب السموات والأرض ، فيخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا من حسن وسيء ، ثم يجازيكم على كلٍّ بما تستحقون .

وغير خاف ما فى هذا من شديد التهديد وعظيم الوعيد لو كانوا يعقلون .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ، قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) .

شرح المفردات

نودى للصلاة : أى النداء الثانى الذى كان يفعل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج فجلس على المنبر ، أما النداء الأول على الزوراء (أعلى دار بالمدينة حينئذ بقرب المسجد) فقد زاده عثمان لكثرة الناس ، فاسعوا : أى فامشوا ، وذكر الله : هو الصلاة ، وذروا البيع : أى اتركوه ، فانتشروا : أى فتفرقوا ، من فضل الله : أى من رزقه ، والمراد باللهو : الطبول والمزامير ونحوها ، انفضّوا : أى انصرفوا ، قائما : أى على المنبر وأنت تخطب .

المعنى الجملى

بعد أن نعى على اليهود فرارهم من الموت حبًّا فى الدنيا والتمتع بطيباتها ــ ذكر هنا أن المؤمن لايمنع من اجتناء ثمار الدنيا وخيراتها مع السعى لما ينفعه فى الآخرة كالصلاة يوم الجمعة فى المسجد مع الجماعة ، فعليه أن يعمل للدنيا والآخرة معا ، فما الدنيا إلا مزرعة الآخرة كما ورد فى الأثر « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

ثم نعى على المسلمين فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تشاغلهم عن سماع عظاته وهو يخطب على المنبر بأمور الدنيا من تجارة وضرب دُفّ وغناء بالمزامير ونحو ذلك ، وأبان لهم أن ما عند الله من الثواب والنعيم المقيم خير لهم من خيرات الدنيا والتمتع بلذاتها الفانية .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) أى إذا أذّن المؤذن بين يدى الإمام وهو على المنبر فى يوم الجمعة للصلاة

فاتركوا البيع واسعوا لتسمعوا موعظة الإمام فى خطبته ، وعليكم أن تمشوا الهوينى بسكينة ووقار حتى تصلوا إلى المسجد .

روى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون (تسرعون) وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة والوقار ، فما أدركتم فصلّوا ، وما فاتكم فأتموا » .

وعن أبى قتادة قال : « بينما نحن نصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم إذ سمع جَلَبة رجال ، فلما صلى قال : ما شأنكم ؟ قالوا: استعجلنا إلى الصلاة ، قال : فلا تفعلوا، إذا أتيتم فامشوا وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلّوا ، وما فاتكم فأتموا » رواه البخارى ومسلم .

(ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أى ذلكم السعى وترك البيع خير لكم من التشاغل بالبيع وابتغاء النفع الدنيوي ، فإن منافع الآخرة خير لكم وأبقى ، فهى المنافع الباقية ، أما منافع الدنيا فهى زائلة ، وما عند الله خير لكم إن كنتم من ذوى العلم الصحيح بما يضر وما ينفع .

ثم ذكر ما يفعلون بعد الصلاة فقال :

(فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) أى فإذا أديتم الصلاة فتفرقوا لأداء مصالحكم الدنيوية بعد أن أديتم ما ينفعكم فى آخرتكم ، واطلبوا الثواب من ربكم ، واذكروا الله وراقبوه فى جميع شئونكم ، فهو العليم بالسر والنجوى ، لاتخفى عليه خافية من أموركم ، لعلكم تفوزون بالفلاح فى دنياكم وآخرتكم .

وفى هذا إيماء إلى شيئين :

(١) مراقبة الله فى أعمال الدنيا حتى لايطغى عليهم حبها بجمع حطامها بأىّ الوسائل من حلال وحرام .

(٢) إن فى مراقبته تعالى الفوز والنجاح فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فلأن من راقبه لا يغشّ فى كيل ولا وزن ولا يغيّر سلعة بأخرى ، ولا يكذب فى مساومة ، ولا يحلف كذبا ، ولا يخلف موعدا ، ومتى كان كذلك شهر بين الناس بحسن المعاملة وأحبوه وصار له من حسن الأحدوثة ما يضاعف له الله به الرزق ، وأما فى الآخرة فيفوز برضوان ربه « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » وبجنات تجرى من تحتها الأنهار ، ونعم أجر العاملين .

وعن عراك بن مالك رضى الله عنه أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد وقال : « اللهم أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين » .

ثم عاتب سبحانه عباده المؤمنين على ما كان منهم من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التى قدمت المدينة يومئذ فقال :

(وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما) أى وإذا رأى المؤمنون عير تجارة أو لهوا أسرعوا وتركوك قائما وأنت تخطب الناس .

أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى فى جماعة عن جابر بن عبد الله قال : « بينما النبى صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة قائما إذ قدمت عير (إبل محملة طعاما من دقيق وبُرّ وزيت) فابتدرها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلا أنا فيهم وأبو بكر وعمر فأنزل الله تعالى : وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا إلى آخر السورة » .

والذى قدم بهذه التجارة دِحْيَة الكلبى من الشام ، وكان إذا قدم لم تبق عاتق (الشابة حين أدركت) بالمدينة إلا أتته ؛ ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه ، فيخرجوا ليبتاعوا منه ، وكان ذلك طريق الإعلان عن التجارة حينئذ .

ثم رغبهم فى سماع العظات فقال :

(قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة) أى قل لهم مبينا خطأ ما عملوا :

ما عند الله مما ينفعكم فى الآخرة خير لكم مما يفيدكم فى الدنيا من التمتع بخيراتها ، وكسب لذاتها ، فتلك باقية ، وهذه فانية .

(والله خير الرازقين) فإليه سبحانه فاسعوا ، ومنه فاطلبوا الرزق ، ولن يفوتكم ذلك بسماع عظاته ، فالله كفيل برزقكم ، ولن ينقص بترككم البيع والشراء حين الصلاة ، وحين سماع العظات والنصائح .

ولله الحمد فى الآخرة والأولى ، وله الحكم وإليه ترجعون .

خلاصة موضوعات السورة :

(١) وصفه تعالى نفسه بصفات الكمال .

(٢) صفات النبى الأمىّ الذى بعثه الله رحمة للعالمين .

(٣) النعى على اليهود لتركهم العمل بأحكام التوراة .

(٤) طلب مباهلة اليهود .

(٥) الحث على السعى للصلاة يوم الجمعة حين النداء والإمام على المنبر .

(٦) الأمر بالسعى على الأرزاق بعد انقضاء الصلاة .

(٧) عتاب المؤمنين على تركهم النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو يخطب قائما وتفرقهم لرؤية التجارة أو اللهو .

سورة المنافقين

هى مدنية وآياتها إحدى عشرة نزلت بعد الحج .

ووجه اتصالها بما قبلها ـ أنه ذكر فى الأولى حال المؤمنين الذين بعث إليهم النبي الأمىّ يتلو عليهم كتابه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وأمرهم بالصلاة وترك البيع حين أدائها ، وفى هذه ذكر أضدادهم وهم المنافقون الذين يشهدون كذبا بأن محمدا رسول الله ويحلفون الأيمان الحرجة على ذلك ، ومن ثم كان النبي يقرأ فى صلاة الجمعة فى الركعة الأولى بسورة الجمعة ، فيحرض بها المؤمنين على العبادة ، وفى الركعة الثانية بسورة المنافقين فيقرّع بها المنافقين .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتَلَهُمُ اللهُ ، أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) .

شرح المفردات

المنافق : من يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، جُنَّةً : أى وقاية وسترا لدمائهم وأموالهم ، آمنو : أى بألسنتهم ، كفروا : أى بقلوبهم ، طبع : أى ختم عليها كما يختم

بالطابع على ما يراد حفظه حتى لا يؤخذ منه شىء ، لا يفقهون : أى لا يعلمون ، تعجبك أجسامهم : أى لصباحتها وتناسب أعضائها ، تسمع لقولهم : أى لفصاحتهم وحسن حديثهم ، خشب : واحدها خشباء ، وهى الخشبة التى نخر جوفها ، والصيحة : الصوت، قاتلهم الله : أى لعنهم وطردهم من رحمته ، يؤفكون : أى يصرفون عما هم عليه .

المعنى الجملى

وصف الله تعالى المنافقين بأوصاف هى منتهى الشناعة والقبح :

(١) أنهم كذابون يقولون غير ما يعتقدون .

(٢) أنهم لا يبالون بالحلف بالله كذبا ، سترا لنفاقهم ، وحقناً لدمائهم .

(٣) أنهم جبناء ، فهم على ضخامة أجسامهم ، وفصاحة ألسنتهم ، يظنون أن كل مناد ينادى إنما يقصدهم للإيقاع بهم .

الإيضاح

(إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله) أى إذا حضر مجلسك المنافقون كعبد الله بن أبىّ وصحبه قالوا نشهد شهادة لا نشك فى صدقها، إنك رسول من عند الله حقا ، أوحى إليك وحيه ، وأنزل عليك كتابه ، رحمة منه بعباده .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها ، تحقيقا لرسالته فقال :

(والله يعلم إنك لرسوله) أى والله يعلم إنك لرسوله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، لتنقذهم من الضلال إلى الهدى .

ثم بيّن كذبهم فى مقالهم الذى حدّثوا به فقال :

(والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون) فيما أخبروا به ، لأنهم لا يعتقدون صدق ما يقولون ولا تواطىء قلوبهم ألسنتهم فى هذه الشهادة .

ثم ذكر أنهم يحتالون على تصديق الناس لهم بكل يمين مُحْرِجة فقال :

(اتخذوا أيمانهم جنة) أى جعلوا أيمانهم الكاذبة وقاية وسترا لحقن دمائهم وحفظ أموالهم ، فيحلفون بالله إنهم لمنكم ، ويقولون : نشهد إنك لرسول الله ، حتى لاتجرى عليهم أحكام الكفار من القتل والأسر وأخذ الأموال غنيمة .

قال قتادة : كلما ظهر عليهم ما يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين ، عصمة لدمائهم وأموالهم .

وفى هذا تعداد لقبائح أفعالهم ، وأن من عادتهم أن يَسْتجنُّوا بالإيمان الكاذبة ، كما استجنوا بالشهادة الكاذبة .

ثم حكى عنهم جريمة أخرى وهى إضلال الناس وصدهم عن الإسلام فقال :

(فصدوا عن سبيل الله) أى فمنعوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، وعن الإنفاق كما حكى عنهم سبحانه بعدُ .

وقصارى ذلك — أنهم أجرموا جُرْمين :

(١) أعدوا الأيمان الكاذبة وهيئوها لوقت الحاجة ، ليحلفوا بها ويتخلصوا من المؤاخذة .

(٢) أنهم يمنعون الناس عن الدخول فى الإسلام وينفّرونهم منه متى استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ثم بين قبح مغبّة ما يعملون ، ووبال ما يصنعون فقال :

(إنهم ساء ما كانوا يعملون) أى قبح فعلهم إذ آثروا الكفر على الإيمان ، وأظهروا خلاف ما أضمروا ، وسيلقون نكالا ووبالا فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فسيفضحهم الله على رءوس الأشهاد ، ويُظْهر نفاقهم للمؤمنين بنحو قوله : « وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ » .

وأما فى الآخرة فحسبهم جهنم و بئس المهاد .

ثم ذكر ما جرأهم على الكذب والاستخفاف بالإيمان المحرجة فقال :

(ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون) أى ذلك الذى فعلوه لسوء سريرتهم ، وقبح طويتهم ، فاستهانوا بما يأتون وما يذرون ، ولم يكن همهم إلا المحافظة على دمائهم وأموالهم ، ومن ثم أظهروا للناس إيمانا وأبطنوا كفرا ، وقد خُتِم على قلوبهم فلا تهتدى إلى حق ، ولا يصل إليها خير ، ومن جرّاء ذلك عَمُوا عما نصب من الأدلة على صدق الرسول ، وصمت الآذان عن سماع ما يوجب الإيمان ، فهم صم بكم عمى فهم لايعقلون .

ثم ذكر مالهم من جمال فى الصورة واعتدال فى القوام فقال :

(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) أى لاستواء خَلْقهم ، وجمال صورهم .

كما وصفهم بالفصاحة وذرابة اللسان فقال :

(وإن يقولوا تسمع لقولهم) لحلاوة منطقهم وحسن توقيع حديثهم فإذا سمعهم سامع أحب أن يُصْغِىَ إليهم ، وأن يطول حديثهم جَهْد الاستطاعة .

ثم وصفهم بأن أفئدتهم هواء لاعقول لهم ولا أحلام فقال :

(كأنهم خشب مسندة) أى هم أشباح بلا أرواح ، لهم جمال فى المنظر ، وقبح فى المَخْبَر ، فسدت بواطنهم ، وحسنت ظواهرهم ، فكانت كالخشب الجوفاء التى نخرها السوس ، فهى مع حسنها لاينتفع فيها بعمل ، ولا يستفاد منها خير ، ولله در أبى نواس :

لاتخدعَنْك اللحى ولا الصُّور ... تسعةُ أعشارِ من ترى بقر

تراهمُ كالسراب منتشرا ... وليس فيه لطالب مَطر

فى شجر السَّرو منهمُ مَثَلٌ ... له رُوَاءٌ وما له ثمـر

ثم وصفهم بالجبن والذلة فقال :

(يحسبون كل صيحة عليهم) أى كلما نادى مناد فى العسكر ، أو انفلتت دابة أو نُشِدَت ضالة ـ ظنوا أن العدو قد فجأهم ، وأن أمرهم قد افتضح ، وأنهم هالكون لامحالة ، ولقد قالوا : يكاد المريب يقول خذونى ، ويكاد السارق يقول إذا رأى القيد : ضعوه فى يدى ، لما ألقى من الرعب فى قلوبهم ، فهم يخافون أن تهتك أستارهم ، وتكشف أسرارهم ، ويتوقعون الإيقاع بهم ساعة فساعة .

ونحو الآية قوله تعالى : « أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ، تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ » وقد نظر المتنبى إلى الآية فى قوله :

وضاقت الأرض حتى ظن هاربهم إذا رأى غيرَ شىء ظنـــه رجلا

(هم العدوّ) الذى بلغ الغاية فى العداوة .

(فاحذرهم) ولا تأمنهم على سر ، ولا تلتفت إلى ظاهرهم ، فقلوبهم متحرقة حسدا و بغضا ، وأعدى الأعداء العدو المداجى الذى يكاشرك (يبتسم لك) وتحت ضلوعه الداء الدوىّ ، والشر المستطير .

ثم زاد سبحانه فى ذمهم وتوبيخهم ، وعجّب من حالهم فقال :

(قاتلهم الله) أى لعنهم الله وطردهم من رحمته ، فما أقطع حالهم ، وما أشدهم غفلة عن مآلهم .

وهذا تعليم منه لعباده المؤمنين أن يلعنوهم ، فكأنه قال : قولوا قاتلهم الله .

(أنّى يؤفكون) أى كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل ، وقد كان لهم مدّكر فيما حولهم ، وفيما أمامهم من صدق الداعى بما أتى به من البينات الدالة على أنه مرسل من ربه .

وإن تعجب من شىء فاعجب من جهالتهم وظنهم الفاسد أنهم على الحق ، فما أعظمها محنة ، وأعجب بها نقمة ، جازاهم الله بها على سوء أعمالهم ، وقبيح فعالهم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) .

شرح المفردات

لوّوا رءوسهم : أى حوّلوها استهزاء ، يصدون : أى يعرضون عن القائل ، الفاسقين : أى الخارجين من طاعة الله وطاعة الرسول ، المنهمكين فى أنواع الشرور والآثام ، حتى ينفضوا : أى حتى يتفرقوا ، خزائن السموات والأرض : أى خزائن الأرزاق فيهما ، لا يفقهون : أى لا يعلمون علماً صادراً عن إدراك لجلال الله وقدرته ، والأعزّ : أى المنافقون ، والأذل فى زعمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه ، والعزة : الغلبة والنصر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر كذب المنافقين فى قولهم للرسول صلى الله وعليه سلم : نشهد إنك لرسول الله ، وبيّن شنيع أفعالهم ، بترويجها بالأيمان الفاجرة ، ثم أعقبه بذكر جبنهم وصلفهم ، وأنهم أجسام البغال ، وأحلام العصافير ، ثم أردفه ببيان أنهم أعداء الله حقا ؛ أعقب هذا بذكر ماصدر منهم مما يثبت كذبهم ونفاقهم ، بما لا يدع شبهة لمن يلتمس لهم المعاذير ، ويبرئهم من النفاق ؛ فمن ذلك :

(١) أنهم إذا طلب منهم أن يتقدموا إلى الرسول ليستغفر لهم على ما فرط منهم من الذنوب، أمالوا رءوسهم وأعرضوا استكباراً وأنفة أن يفعلوا.

(٢) أنهم قالوا: لئن رجعنا من وقعة بنى المُصْطَلِق (قبيلة من اليهود) إلى المدينة لنخرجن الأذلاء محمداً وصحبه منها.

ثم نعى عليهم ما قالوا بأنهم قوم لاحلوم لهم، ولاهم يفقهون جليل قدرة الله وبديع صنعه.

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين غزا بنى المصطلق علا المُرَيْسِيع (ماء لهم) وهزمهم وقتل وأسر — ازدحم على الماء جَهْجَاه بن سعيد الغِفَارى، وكان أجيراً لعمر بن الخطاب، وسنان الجُهنى، وكان حليف عبد الله بن أُبىّ، واقتتلا فصرخ جهجاه وقال: ياللَمهاجرين، وصرخ سنان وقال: ياللَأنصار، فأعان جهجاها رجل من المهاجرين ولطم سنانا: فقال عبد الله بن أبىّ للمهاجرين: ماصحبْنا محمداً إلا لنُلْطَم، والله مامثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: سمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل، ثم قال لقومه: لو أمسكتم عن هذا وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: دعنى يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق قال: إذاً تَرْعُد أنف كثيرة بيثرب (يريد صلى الله عليه وسلم أنه يهيج الشر) قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجر فأمر به أنصاريا، قال: فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟. ثم قال لعبد الله: أنت صاحب هذا الكلام الذى بلغنى، قال: والله الذى أنزل عليك الكتاب ماقلت شيئاً من ذلك، وإن زيدا (يريد زيد بن أرقم الذى بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم) لكاذب، فنزلت هذه الآيات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد: ياغلام إن الله صدّقك وكذب المنافقين، فلما بان كذب عبد الله قيل له: قد نزلت فيك آى شداد، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر

لك ، فلوّى رأسه وقال : أمرتمونى أن أومن فآمنت ، وأمرتمونى أن أزكّى فزكيت وما بقى إلا أن أسجد لمحمد ، ولم يلبث إلا أياما حتى اشتكى ومات .

الإيضاح

(وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رءوسهم ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون) أى وإذا قيل لجماعة المنافقين كعبد الله بن أبىّ : هلموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب لكم من ربكم غفران ذنوبكم ، صدوا وأعرضوا ، استكباراً وعتوًّا .

قال الكلبى : لما نزل القرآن بصفة المنافقين مشى إليهم عشائرهم من المؤمنين وقالوا لهم : ويلكم افتضحتم بالنفاق ، وأهلكتم أنفسكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوبوا إليه من النفاق ، واسألوه أن يغفر لكم ، فأبوا ذلك وزهدوا فى الاستغفار فنزلت الآية :

وقال ابن عباس : لما رجع عبد الله بن أُبىّ من أُحُد بكثير من الناس مقته المسلمون وعنّفوه وأسمعوه ما يكره ؛ فقال له بنو أبيه : لو أتيتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يستغفر لك ويرضى عنك، قال: لا أذهب إليه ولا أريد أن يستغفر لى ، وجعل يلوّى رأسه فنزلت :

ثم أيأسهم من جدوى الاستغفار لهم فقال :

(سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم) أى الاستغفار لهم وعدمه سيان لا يجديانهم نفعاً ، لأن الله قد كتب عليهم الشقاء بما كسبت أيديهم ، وبما اجترحت من الفسوق والآثام ، وبما ران على قلوبهم من الجحود والطغيان ؛ ثم علل ذلك بقوله :

(إن الله لا يهدى القوم الفاسقين) أى إن الله لا يهدى من أحاطت به خطيئته فلم تجد الهداية إلى قلبه سبيلا تسلكه ، ولا المواعظ والنصائح متسعاً فى فؤاده ،

فأنى للقلب أن يهتدى ، وللعقل أن يرعوى، وماذا تفيد الآيات والنذر عن قوم لا يعقلون ؟

ثم ذكر هَنَة أخرى لهم فقال :

(هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عنــد رسول الله حتى ينفضوا) أى هم الذين يقولون للأنصار : لاتطعموا محمداً وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة ، فيتركوا نبيهم حين يعضّهم الجوع بنابه .

ثم رد عليهم وخطّأهم فيما يقولون فقال :

(ولله خزائن السموات والأرض) أى ولله جميع مافى السموات والأرض من شئ ، و بيده مفاتيح أرزاق العباد ، لايقدر أحد أن يعطى أحدا شيئاً إلا بمشيئته .

(ولــكن المنافقين لا يفقهون) ذلك ، لجهلهم بسنن الله فى خلقه ، وأن الله قد كفل الأرزاق لعباده فى أى مكان كانوا متى عملوا وجدوا فى الحصول عليها .

ثم ذكر هَنَة ثالثة لهم وهى أعظمها فقال :

(يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل) أى يقول عبد الله ابن أبىّ ومن يلوذ به من صحبه : لئن عدنا إلى المدينة لنخرجنكم منها أيها المؤمنون فإننا الأقوياء الأشداء الأعزاء ، وأنتم الضعفاء الأذلاء .

ثم رد عليهم مقالهم فقال :

(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) أى ولله الغلبة والقوّة ، ولمن أعزه الله من الرسول والمؤمنين .

روى « أن عبد الله بن عبد الله بن أُبىّ ، وكان مؤمناً مخلصا ، سلّ سيفه على أبيه عند ما أشرفوا على المدينــة وقال : لله علىّ ألا أغمده حتى تقول : محمد الأعز وأنا الأذل ، فلم يبرح حتى قال ذلك » .

وروى « أنه وقف واستل سيفه وجعل الناس يمرون عليه حتى جاء أبوه فقال : وراءك ، قال مالك و يلك ؟ قال والله : لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله

صلى الله عليه وسلم فإنه العزيز وأنت الذليل ، فرجع حتى لقى رسول الله ، وكان إنما يسير ساقة (فى آخر الجيش) ، فشكا إليه ماصنع ابنه ، فأرسل إليه النبى صلى الله عليه وسلم أن خلِّ عنه يدخل ففعل » .

(ولكن المنافقين لايعلمون) أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأن العاقبة للمتقين ، وأن الله ينصر من ينصره كما قال « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى » وسننه تعالى لاتبديل فيها ولاتغيير ، وهو لابد جاعل عباده المؤمنين هم الأعزاء كما وعد ، وجاعل مخالفيه هم الأذلاء .

ولادخل للمال والنشب ، ولا للحسب والنسب ، فى تلك القوّة التى يُمد بها من يشاء ، والنصرة التى يمنحها عباده المخلصين ، وإن الله منجز وعده لنبيه ، كما أنجزه لمن قبله من رسله ، وقد تم لهم الظفر على أعدائهم الضالين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) .

شرح المفردات

لاتلهكم : أى لاتشغلكم ، وذكر الله : العبادات المذكرة به ، والمال والأولاد يراد بها زخرف الدنيا ، الخاسرون فى تجارتهم : إذ باعوا العظيم بالحقير ، لولا : كلمة تفيد تمنى حصول مابعدها .

المعنى الجملى

بعد أن حكى مقال المنافقين من أنهم الأعزاء ، وأن المؤمنين هم الأذلاء ، اغترارا بما لهم من مال ونشب ، وأن ذلك هو الذى صدهم عن طاعة الله ، وجعلهم يعرضون عن الإيمان بالله إيماناً حقا ، ويؤدون فرائضه ، ويقومون بما يقربهم من رضوانه ؛ أردف ذلك بنهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم فى ذلك ، بل عليهم أن يلهجوا بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ، ويؤدوا ما فرض عليهم من العبادات ، ولا يشغلهم عن ذلك زخرف هذه الحياة من مال ونشب وأولاد وجاه ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ؛ ثم أمرهم أن ينفقوا أموالهم فى أعمال البر والخير ولا يؤخروا ذلك حتى يحل الموت فيندموا حيث لا ينفع الندم ، ويتمنوا أن يطيل الله أعمارهم ليعوضوا بعض ما فاتهم ، ولكن أنَّى لهم ذلك ؛ ولكل نفس أجل محدود لاتعدوه ، والله خبير بما يعملون ، وهو مجازيهم على أعمالهم ، إن خيرًا وإن شرًّا .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) أى لا يشغلكم تدبير أموالكم ، والعناية بشؤون أولادكم ، عن القيام بحقوق ربكم ، وأداء فرائضه التى طلبها منكم ، واجعلوا للدنيا حظا من اهتمامكم ، وللآخرة مثله ، وهذا ماعناه الحديث : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

وبهذا امتازت الملة الحنيفية السمحة ، فما طلب من المؤمنين أن يكونوا ماديين يتكالبون على جمع حطام الدنيا كما يفعل اليهود ، ولا أن يكونوا روحانيين يجردون أنفسهم من لذات هذه الحياة ، ويتبتلون إلى ربهم كما يفعل المسيحيون ، كما يرشد إلى هذا قوله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

الرِّزْقِ » وقوله : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » .

ثم توعد من يفعل ذلك فقال :

(ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) أى ومن تلهّ بالدنيا وشغلته عن حقوق الله فقد باء بغضب من ربه ، وخسرت تجارته ، إذ باع خالدا باقياً ، واشترى فانياً زائلا ؛ وكيف يرضى عاقل بمثل هذه التجارة الخاسرة ؟

ومن أهم مايقرب العبد من ربه ، ويجعله يفوز برضوانه — رحمة البائسين من عباده ، وبذل المال فى الوجوه التى فيها سعادة الأمة ، وإعلاء شأن الملة ، وانتشار الدعوة ، ومن ثم قال :

(وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين) أى وأنفقوا بعض ما أعطيناكم من فضلنا من الأموال ، شكرا على النعمة ، ورحمة بالفقراء من عباده ، وادخروا ذلك ليوم العرض والحساب ، فتجنوا ثمار ماعملتم ، ولا تدخروه فى صناديقكم ، وتدعوه لوارثكم ، فربما أضاعه فيما لا يكسبكم حمدا ولا مدحا ، بل يكسبكم ذما وقدحا .

وقد جاء فى الخبر : « أطعموا الطعام ، وصِلوا الأرحام ، وصَلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » وجاء أيضا : « يابن آدم ليس لك من مالك إلا ما لبست فأبليت ، أو أكلت فأفنيت ، أو تصدّقت فأبقيت » .

ولا تنتظروا حتى يحين وقت الاحتضار ، وتروا الموت رأى العين ، ثم تتمنون أن لو مدّ الله فى الأجل ، وأطال العمر ، لتتداركوا مافات ، وتحسنوا العمل ، وتساعدوا البائسين وذوى الحاجة ، فهيهات هيهات ، فليس ذا وقت الندم .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

فأنّى للعمر أن يطول ، وللحياة أن تزيد ؟ ولكل نفس أجل لا تعدوه ، وعمر

لايزيد ولا ينقص ؛ فماذا يفيد التمنى ، وماذا ينفع الندم والحسرة ؟ وذلك ما عناه سبحانه بقوله :

(ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) فعليكم أن تستعدوا قبل حلول الأجل ، وتهيئوا الزاد ليوم المعاد « فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ . نَارٌ حَامِيَةٌ » .

وفى هذا عبرة لمن اعتبر، ولم يفرّط فى أداء الحقوق والواجبات .

ثم حذرهم وأنذرهم بأنه رقيب عليهم فى كل مايأتون وما يذرون فقال :

(والله خبير بما تعملون) فمجازيكم على الإحسان إحساناً ، وعلى الإساءة إعراضا عنه وسخطا ، و بعدا عن رضوانه : إنك لاتجنى من الشوك العنب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله .

تضمنت هذه السورة شيئين

(١) وصف المنافقين و بيان سيئ خصالهم من الكذب والأيمان الفاجرة والجبن .

(٢) حث المؤمنين على الطاعة و إنفاق المال قبل انقضاء الأجل .

سورة التغابن

هى مدنية ، وآياتها ثمانى عشرة ، نزلت بعد التحريم .

ومناسبتها لما قبلها :

(١) إنه فى السورة قبلها ذكر حال المنافقين ، وخاطب بعد ذلك المؤمنين ، وهنا قسم الناس قسمين مؤمن وكافر .

(٢) نهى هناك عن الاشتغال بالأولاد عن ذكر الله ، وهنا ذكر أن الأموال والأولاد فتنة .

(٣) فى السورة السابقة حث على الإنفاق فى سبيل الله ، وفى ذكر التغابن حث عليه أيضا .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَافِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَاتُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) .

الايضاح

(يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض) أى إن وجود مافى السموات والأرض دالٌّ على تنزيه الله وكماله ، و إن هذه المخلوقات مسخرة منقادة له .

(له الملك وله الحمد) فهو المتصرف فى جميع الكائنات، المحمود على جميع مايخلق ويقدر، لأنه مصدر الخيرات، ومفيض البركات.

(وهو على كل شىء قدير) فما أراد كان بلا ممانع ولامدافع، ومالم يشأ لم يكن.

ثم ذكر بعض مقدوراته تعالى فقال:

(هو الذى خلقكم) أى هو الذى أوجدكم كما شاء على ماشاء.

ثم قسم هذا المخلوق فقال:

(فمنكم كافر، ومنكم مؤمن) أى فبعضكم مختار للكفر كاسب له على خلاف ماتقتضيه فطرته، وبعضكم مختار للإيمان كاسب له بحسب ما تدعو إليه الفطرة كما جاء فى الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه» وقد كانت الأدلة الكونية فى الأنفس والآفاق كفيلة أن تردكم إلى الحق، فتختاروا الإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتبعهما من سائر النعم، ولكنكم مافعلتم ذلك، بل تفرقتم شيعا، وجحدتم الخالق، وكفرتم بأنعمه عليكم، بعد أن أفصح الصبح لذى عينين.

(والله بما تعملون بصير) أى وهو البصير بمن هو مستعد للهداية لصفاء نفسه، وزكاء روحه، فيعطيه ماهو له أهل؛ ومن خبثت طويته، وفسدت سجيته، ودسّى نفسه بكبائر الذنوب والآثام، وسيجزى بما هو به حقيق من العذاب الأليم فى جهنم «إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا».

وبعد أن ذكر نعمة خلق الإنسان ذكر النعمة الشاملة بخلق العالم كله على أتم ما يكون من الحكمة والعدل فقال:

(خلق السموات والأرض بالحق) أى بالحكمة البالغة المتضمنة لمنافع الدين والدنيا

(وصوّركم فأحسن صوركم) حيث أودع فيكم القوى، والمشاعر الظاهرة والباطنة وجعلكم صفوة جميع مخلوقاته، وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته؛ فالإنسان يضم روحا هو من عالم الأرواح، وبدنا هو من عالم الأشباح، وأنشدوا:

وتزعم أنك جرم صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبرُ

(وإليه المصير) فى الحياة الآخرة ، وهو الذى يجازى كل نفس بما كسبت ، لامعقّب لحكمه وهو سريع الحساب ، فاصرفوا ماخلق لكم فى شكره ، والوفاء بحق نعمه المتظاهرة عليكم ، ظاهرة وباطنة .

(يعلم مافى السموات والأرض) فلا تخفى عليه خافية من أمرها ، وهو يدبرها بحسب علمه الواسع ، وقدرته الشاملة « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

ثم خص بعض مايعلمه ، عناية بأمره ، إذ عليه الثواب والعقاب فقال :

(ويعلم ماتسرون وما تعلنون) فاجعلوا أعمالكم ظاهرها وباطنها وَفْقَ مايطلبه منكم الدين ، لتنالوا الفوز برضوان الله وجميل مثوبته .

ثم علل هذا بقوله :

(والله عليم بذات الصدور) أى لأنه تعالى محيط بجميع ما أضمره المرء فى صدره ، واستكنّ فى قلبه ، فلا يخفى عليه مايسرّ وما يعلن .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ؟ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) .

شرح المفردات

ألم يأتكم : هـذا الاستفهام للتعجب من حالهم ، والنبأ : الخبر الهام ؛ وأصل الوبال : الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور ، ومنه الطعام الوبيل أى الثقيل على المعدة ، والوابل : المطر الثقيل القطر ، ثم استعمل فى الضر لأنه يثقل على الإنسان

والأمر: الكفر وعبر به للإيذان بأنه جناية عظيمة وأمر هائل، والبينات: المعجزات، وتولوا: أعرضوا، واستغنى الله: أى أظهر غناه عنهم؛ إذ أهلكهم وقطع دابرهم.

المعنى الجملى

بعد أن بسط سبحانه الأدلة على عظيم قدرته وواسع علمه، وأنه خلق السموات والأرض، وأنه صورهم فأحسن صورهم، وأنه يعلم السر والنجوى — حذّر المشركين من كفار مكة على تماديهم فى الكفر، والجحود بآياته، وإنكار رسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم؛ وبيّن لهم عاقبة ما يحل بهم من العذاب فى الدنيا والآخرة؛ وضرب لهم الأمثال بالأمم المكذبة من قبلهم، فقد كذبوا رسلهم، وتمادوا فى عنادهم، وقالوا: أيرسل الله من البشر رسلا؟ فحلّت بهم نقمة ربهم؛ وأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ وأصبحت ديارهم خرابا يبابا، كأن لم يغنوا بالأمس، فهلا يكون ذلك عبرة لهم؛ فيثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا إلى ربهم لو كانوا من أرباب النُّهَى.

الإيضاح

(ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم) أى ألم يبلغكم أيها المشركون من أهل مكة نبأ الذين كفروا بالرسل من قبلكم كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم من الأمم التى أصرّت على الكفر والعناد، كيف حل بهم عقاب ربهم، وعظيم نقمته؛ وأرسل عليهم ألوانا من العذاب لا قِبَل لهم بها؛ فمن صاعقة من السماء تجتاحهم، إلى رجفة فى الأرض تهلكهم، إلى صيحة تصم الآذان تبيدهم وتجعلهم كأمس الدابر، وتمحوهم من صفحة الوجود، إلى طوفان يعم الأرض ويبتلعهم؛ فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون؛ وسيكون لهم عظيم النكال والوبال يوم تُجْزَى كل نفس بما كسبت، إن الله سريع الحساب.

وفى هذا الأسلوب تعجيب من حالهم ، وأنه قد كان لهم فى ذلك مدّكر ، لو كانوا يستبصرون ، وعبرة لو كانوا يعتبرون .

ثم بيّن أسباب ماحل بهم من النقمة فقال :

(ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا ؟ فكفروا وتولوا واستغنى الله ، والله غنى حميد) أى إن ماحل بهم من سوء العذاب كان من جراء تكذيبهم بالرسل بعد أن جاءوهم بالأدلة الواضحة ، والمعجزات الباهرة؛ وقالوا: إن من العجب العاجب أن يكون هدْينا على يدَىْ بشر منا لاميزة لهم عنا بعقل راجح ، ولابسلطان يتملكون به قيادنا ، ويجعل لهم بسطة النفوذ علينا ، كما قالت ثمود : « أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ » وقد جهلوا أن النبوة رسالة يصطفى بها الله من يشاء من عباده كما قال : « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

و بعد أن طال عنادهم وتمادَوْا فى غيّهم أهلكهم الله بسلطانه وجبروته ، وقطع دابرهم ، واستغنى عن إيمانهم ، وهو الغنى عن العالمين جميعا ، والغنى عن إيمانهم وطاعتهم ، وهو الحقيق بالحمد على ما أنعم به على عباده من النعم المتظاهرة عليهم ، ظاهرة و باطنة .

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠)

شرح المفردات

زعم فلان كذا : أى ادعى علمه بحصوله ، وأكثر مايستعمل للادعاء الباطل ، بلى : كلمة للجواب تقع بعد النفى لإثبات مابعده كما وقع فى الآية، لتبعثن: أى لتحاسبنّ وتجزَوُنّ بأعمالكم ، والنور : هو القرآن ؛ وسمى بذلك لأنه بيّن فى نفسه مبيّن لغيره ، والخبير : هو العليم ببواطن الأشياء ، يوم الجمع : هو يوم القيامة ؛ سمى بذلك لأن الله يجمع فيه الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، والتغابن ، من قولهم : تغابن القوم فى التجارة: إذا غبن بعضهم بعضا كأن يبيع أحدهم الشىء بأقل من قيمته ، فهذا غبن البائع ، أو يشتريه بأكثر من قيمته ، وهذا غبن المشترى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف إنكار المشركين للألوهية ، ثم إنكارهم للنبوة بقولهم : « أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ؟ » ثم أعقبه بأنهم سيلقون الوبال والنكال جزاء مافعلوا ـ أردف ذلك بذكر إنكارهم للبعث ، ثم بإثبات تحققه وأنه كائن لامحالة ، وأن كل امرئ سيجازى بما فعل يوم يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد حين يغبن الكفار فى شرائهم ، لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، ويفوز المؤمنون فى تجارتهم بالصفقة الرابحة ، لأن الله اشترى منهم أموالهم وأنفسهم بالجنة فضلا منه ورحمة .

الإيضاح

(زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا) أى ادعى المشركون أن لابعث ولا حساب ولا جزاء فقالوا : « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ » وقالوا : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ »

فأمر رسوله بالرد عليهم وإبطال زعمهم بقوله :

(قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) أى قل لهم : إن البعث كائن لامحالة ، وإنكم وربى الذى برأ الخلق وأنشأهم من العدم ستحاسبن على أعمالكم وتجزونّ على الكثير والقليل ، والنقير والقطمير ، وذلك هين عليه يسير .

ونحو الآية قوله تعالى : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » وقوله : « وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ؟ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » وقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ » الآية .

وبعد أن أبان لهم أدلة التوحيد والنبوة بما لامجال معه للإنكار — طالبهم بالإيمان بهما فقال :

(فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا) أى فصدقوا بالله ورسوله وكتابه الهادى لكم إلى سواء السبيل إذا تراكمت ظلمات الشبهات ، والمنقذ لكم من الضلالة إذا أحاطت بكم الخطيئات .

ثم توعدهم على مايأتون وما يذرون فقال :

(والله بما تعملون خبير) فلا تخفى عليه أعمالكم ، وسيحاسبكم على ما كسبت أيديكم من خير أو اكتسبت من شر ، فراقبوه وخافوا شديد عقابه .

(يوم يجمعكم ليوم الجمع) أى وتذكروا يوم يجمع الله الأولين والآخرين للحساب والجزاء فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، لتجزى كل نفس بما كسبت ، لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

ونحو الآية قوله تعالى : « ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » وقوله : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ » .

(ذلك يوم التغابن) فالكافرون قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم ولم يربحوا فيها ، والمؤمنون باعوا أنفسهم بالجنة فربحت صفقتهم وما كانوا خاسرين ، وفى الصحيح « ما من عبد يدخل الجنة إلا أُرِىَ مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا ، وما من عبد يدخل النار إلا أُرِىَ مقعده من الجنة ، ليزداد حسرة » .

والخلاصة — إنه لاغبن أعظم من أن قوما ينعمون ، وقوما يعذبون ، وأن قوما مغبونين فى الدنيا أصبحوا فى الآخرة غابنين لمن غبنوهم فيها .

ثم بين هذا التغابن وفصله بقوله :

(ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) أى ومن يصدق بالله ويعمل بطاعته وينته إلى أمره ونهيه — يمح عنه ذنوبه ويدخله جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار لابثين فيها أبدا لايموتون ولا يخرجون منها ، وذلك هو الفوز الذى لافوز بعده ، لانطوائه على النجاة من أعظم المهالك ، وأجلّ المخاطر .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) أى والذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا بأدلته وآى كتابه الذى أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم أولئك أصحاب النار خالدين فيها أبدا ، وبئس النار مصيرا لهم .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ (١٢) اللهُ لاَإِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) .

شرح المفردات

المصيبة : ماينال الإنسانَ ويصيبه من خير أو شر ، بإذن الله : أى بقدرته ومشيئته ، يهد قلبه : أى يشرحه لازدياد الخير والطاعة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أن الناس قسمان : كافر بالله مكذب لرسوله لايألو جهدا فى إيصال الأذى بهم ، ومؤمن بالله مصدق لرسله وهو يعمل الصالحات - أردف ذلك ببيان أن مايصيب الإنسان من خير وشر فهو بقضاء الله وقدره بحسب النُّظُم التى وضعها فى الكون ، فعلى الإنسان أن يجدّ ويعمل ، ثم لايبالى بعد ذلك بما يأتى به القضاء ، لعلمه بأن مافوق ذلك ليس فى طاقته ، ولن يهوله أمره ، ولن يحزن عليه ، ثم أمر بعد ذلك بطاعة الله وطاعة الرسول ، وأبان أن تولِّى الكافرين عن الرسول لن يضيره شيئا ، فإنه قد أدى رسالته .

وما على الرسول إلا البلاغ ، وأن على المؤمن أن يتوكل على الله وحده ، وهو يكفيه شر ما أهمه .

الإيضاح

(ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) أى ما أصاب أحدا من خيرات الدنيا ولذاتها أو رزاياها وشرورها — فهو بقضاء الله وقدره بحسب ماوضع من السنن فى نظم الكون، فعلى المرء أن يعمل ويجدّ ويسعى لجلب الخير ودفع الضر عن نفسه أو عن غيره ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ثم هو لايحزن ولا يغتمّ لما يصيبه بعد ذلك ، لأنه قد فعل ماهو فى طاقته وما هو داخل فى مقدوره ، وما بعد ذلك فليس له من أمره شىء .

والخلاصة — إن على المؤمن واجبين :

(١) السعى و بذل الجهد فى جلب الخير ودفع الضر ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

(٢) التوكل على الله بعد ذلك ، اعتقادا منه أن كل شىء يحدث فإنما هو بقضائه وقدره ، فلا يغتم ولا يحزن لدى حلول الشر ، ولا يتمادى فى السرور عند مجىء الخير .

ثم بين أن الإيمان يضىء القلب ، و يشرح الصدر لخير العمل فقال :

(ومن يؤمن بالله يهد قلبه) ويشرح صـــدره ، لازدياد الخير والمضى قُدُما فى طاعة الله ، وأىُّ نعمة أعظم من هذه النعمة ؟ جدٌّ فى عمل الخير ، واستراحة لدى الغم والحزن ، واطمئنان للنفس ، ووثوق بفضل الله .

(والله بكل شىء عليم) أى والله عليم بالأشياء كلها ، فهو عليم بالقلوب وأحوالها ومطلع على سرها ونجواها ، فاحذروه وراقبوه فى السر والعلن ، كما جاء فى الأثر « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين) أى وأطيعوا الله فيما شرع ، وأطيعوا رسوله فيما بلَّغ ، وافعلوا مابه أمر ، واتركوا ماعنه نهى وزجر ، فإن أعرضتم عن ذلك فإنما عليه أداء ماحُمل من الرسالة، وعليكم ماحملتم من السمع والطاعة ، وهو قد أدى ماعليه ، ولا يكلف شيئا بعد ذلك .

(الله لاإله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى وحدوا الله وأخلصوا له العمل وتوكلوا عليه ، ونحو الآية قوله : « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً » .

وفى هذا إيماء إلى أن المؤمن لايعتمد إلا عليه ، ولا يتقوّى إلا به ، لأنه يعتقد أنه لا قادر فى الحقيقة إلا هو ، وفيه حث لرسوله صلى الله عليه وسلم على التوكل

عليه ، والتقوّى به فى أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه ، وكأنها تشير إلى أن من لا يتوكل عليه فليس بمؤمن ، وهى كالخاتمة والفذلكة لما تقدم .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ، وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ، وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٨) .

شرح المفردات

فتنة : أى بلاء ومحنة ، ومن يوق : أى من يحفظ نفسه ، والشح : البخل مع الحرص ، والقرض الحسن : هو التصدق من الحلال ، هو التصدق بإخلاص وطيب نفس .

المعنى الجملى

بعد أن أمر بطاعة الله وطاعة رسوله ، وذكر أن المؤمن ينبغى أن يتوكل على الله تعالى ولا يعتمد إلا عليه — ذكر هنا أن من الأولاد والزوجات أعداء لآبائهم وأزواجهم يثبطونهم عن الطاعة ، ويصدونهم عن تلبية الدعوة لما فيه رفعة شأن الدين وإعلاء كلمته ، فعليكم أن تحذروهم ولا تتبعوا أهواءهم حتى لا يكونوا إخوان

الشياطين يزينون لكم المعاصى ويصدونكم عن الطاعة ؛ ثم أردف هذا ببيان أن الإنسان مفتون بماله وولده ، فإنه ربما عصى الله تعالى بسببهما ، فغصب المال أو غيره لأجلهما ، فعليه أن يتقى الله ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولينفق ذو سعة من سعته ، فمن جاد بماله ووقى نفسه الشح فهو الفائز بخيرى الدنيا والآخرة ، ومن أقرض الله قرضاً حسناً فالله يضاعف له الحسنة بعشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف ، وهو عالم بما يغيب عن الإنسان وما يشاهد ، وهو العزيز الحكيم فى تدبير شئون عباده .

أخرج الترمذى والحاكم وابن جرير وغيرهم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ » فى قوم من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأوا الناس قد فقهوا فى الدين همّوا أن يعاقبوهم فأنزل الله : « وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا » الآية . وفى رواية عنه أنه قال : كان الرجل يريد الهجرة فتحبسه امرأته فيقول : أما والله لئن جمع الله بينى وبينكم فى دار الهجرة لأفعلنّ ولأفعلنّ ، فجمع الله بينهم فى دار الهجرة فأنزل الله الآية .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم فاحذروهم) أى أيها الذين صدّقوا الله ورسوله : إن من أزواجكم وأولادكم أعداء لكم يحولون بينكم وبين الطاعات التى تقربكم من ربكم ، والأعمال الصالحة التى تنفعكم فى آخرتكم ، وربما حملوكم على السعى فى اكتساب الحرام ، واكتساب الآثام لمنفعة أنفسهم .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يأتى زمان على أمتى يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده ، يعيّرانه بالفقر ، فيركب مراكب السوء فيهلك » .

ومن الناس من يحمله حبهم والشفقة عليهم ، ليكونوا فى عيش رغد فى حياته

و بعد مماته ، فيرتـكب المحظورات لتحصيل ما يكون سببا لذلك ، و إن لم يطالبوه فيهلك .

ومن المفسرين من حمل العداوة على العداوة الدنيوية وقالوا : إن الزوجات والأولاد ربما آذوا أزواجهم وآباءهم ، وجرّعوهم الغُصَص والآلام ، وربما جرّ ذلك إلى وضع السّم فى الدسم أو إلى قتلهم ، وفى المشاهد أكبر عبرة لمن اعتبر .

والخلاصة — إنه إما يراد بالعداوة العداوة الأخروية ، فإن الأزواج والأولاد ربما أضروا بأزواجهم وآبائهم فيها إذا منعوهم عن عمل الخير لها، و إما أن يراد العداوة فى الدنيا فتكون عداوة حقيقية بينهم لها آثارها الدنيوية .

ثم أرشدهم إلى التجاوز عن بعض هناتهم فقال :

(و إن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم) أى و إن تعفوا عن ذنوبهم التى ارتكبوها بترك المعاقبة ، وتصفحوا بالإعراض وترك التثريب عليها ، وتغفروا بإخفائها ، وتمهيد معذرتهم فيها ، فهو خير لـكم فإن الله رحيم بكم وبهم ، ويعاملـكم بمثل ما عاملتم و يتفضل عليكم .

ثم أخبر سبحانه بأن الأموال والأولاد فتنة فقال :

(إنمـا أموالـكم وأولادكم فتنة) أى إنما حبكم لأموالـكم وأولادكم ابتلاء واختبار، إذ كثيرا مايترتب على ذلك الوقوع فى الآثام ، وارتكاب كبير المحظورات .

وقدمت الأموال على الأولاد لأنها أعظم فتنة كما قال : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى . أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى » .

أخرج أحمد والطبرانى والحاكم والترمذى عن كعب بن عياض قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن لـكل أمة فتنة ، و إن فتنة أمتى المال » .

(والله عنده أجر عظيم) لمن آثر محبته وطاعته على محبة الأولاد وطاعتهم ، فلا تباشروا المعاصى بسبب الأولاد ، ولا تؤثروهم على ماعند الله من الأجر العظيم .

(فاتقوا الله ما استطعتم) أى ابذلوا فى تقواه جهدكم وطاقتكم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » .

ونحو هذا ما جاء فى قوله: « اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .

(واسمعوا وأطيعوا) أى كونوا منقادين لما يأمركم الله ورسوله به ، ولا تحيدوا عنه يَمْنة ولا يَسرة ، ولا ترتكبوا ما نُهيتم عنه .

(وأنفقوا خيراً لأنفسكم) أى وابذلوا مما رزقكم الله على الفقراء والمساكين وذوى الحاجات ، وفى الوجوه التى يكون فيها صلاح الأمة والملة ، وسعادة الدين والدنيا ، وذلك خير لأنفسكم من الأموال والأولاد ؛ وهذا حثّ على البذل ، وبيان أن الامتثال خير لا محالة .

ثم زاد فى الحث على الإنفاق فقال :

(ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) أى ومن يبتعد عن البخل والحرص على المال — يكن من الفائزين بكل ما يرجو ، ونيل كل ما يبغى فى دينه ودنياه ، فيكون محبباً إلى الناس ، قرير العين برضاهم عنه وحنوّهم عليه ، سعيداً فى الآخرة بالقرب من ربه ومحبته ورضوانه ودخول جناته .

ثم بالغ فى الحث على الإنفاق أيضاً فقال :

(إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم) أى إن تنفقوا فى طاعة الله ، متقرّبين إليه بإخلاص وطيب نفس — يضاعف لكم ذلك ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويستر لكم ما فرط من زلاتكم ؛ جاء فى الصحيحين : «إن الله يقول : من يقرض غير ظلوم ولا عديم » ؟ .

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله : استقرضت عبدى فأبى أن يقرضنى ، ويشتمنى عبدى وهو لا يدرى ، يقول وادهراه وادهراه » وأنا الدهر ثم تلا أبو هريرة هذه الآية » أخرجه ابن جرير والحاكم وصححه .

ونحو الآية ماجاء فى سورة البقرة : « فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً » .

ثم بيّن علة المضاعفة ورغّب فى النفقة فقال :

(والله شكور حليم) فيثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة ، ولا يعاجل من عصاه بعقوبته على كثرة الذنوب والخطايا .

ثم ذكر مايزيد فى الترغيب فى النفقة أيضا فقال :

(عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم) أى هو العليم بما غاب عنكم وبما تشهدونه ، فكل ماتعملون فهو محفوظ لديه فى أمّ الكتاب ، لايعزب عنه مثقال ذرة ، وسيثيبكم عليه ويجازيكم به أحسن الجزاء ؛ وهو ذوالعزة والقدرة، النافذ الإرادة الحكيم فى تدبير خلقه على مايعلم من المصلحة .

خلاصة ماحوته السورة

(١) صفات الله الحسنى .

(٢) إنذار المشركين بذكر ماحلّ بمن قبلهم من الأمم مع بيان السبب فيما نالهم من ذلك .

(٣) إنكار المشركين للبعث .

(٤) بيان أن مايحدث فى الكون فهو بأمر الله وتقديره .

(٥) تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لايضيره إصرارهم على الكفر .

(٦) إن من الأزواج والأولاد أعداء للمرء .

(٧) الأموال والأولاد فتنة وابتلاء .

(٨) الحث على التقوى والإنفاق فى سبيل الله .

سورة الطلاق

هى مدنية ، وآيها ثنتا عشرة ، نزلت بعد سورة الإنسان .

ومناسبتها لما قبلها ـ أنه قال فى السورة السابقة : « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ » وكانت هذه العداوة قد تفضى إلى الطلاق ـ أرشد هنا إلى أحكام الطلاق والانفصال عن الأزواج على أجمل وجه . فقال :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ، وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ ، لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١)

شرح المفردات

طلقتم النساء : أى أردتم طلاقهن كما جاء فى قوله تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » أى إذا أردت قراءته ، لعدّتهن : أى مستقبلين عدّتهن بأن تطلقوهن فى طهر لاقربان فيه ، وأحصوا العدة : أى اضبطوها وأكملوها ثلاثة قروء كوامل ، وأصل الإحصاء العدّ بالحصى كما كان يستعمل ذلك قديما ثم استعمل فى العدّ والضبط ، والفاحشة المبينة : هى ارتكاب ما يوجب الحد ، أو البذاء على الأحماء أو على الزوج ، أو الخروج قبل انقضاء العدة ، وحدود الله : شرائعه التى أمر بها ونهى عن تركها ، ظلم نفسه : أى أضرّ بها ، والأمر : هو الندم على طلاقها والميل إلى رجعتها .

المعنى الجملى

أمر الله المؤمنين أن يطلقوا نساءهم فى الطهر الذى يحسب لهن من عدتهن ، وهو الطهر الذى لا وقاع فيه ، ولا يطلقوهن فى حيض لايعتددن به من قروئهن ، كما أمرهم بضبط العدة وحفظها ، والخوف من تعدى حدود الله ، وعدم إخراجهن من مساكنهن التى كنّ فيها قبل الطلاق حتى تنتهى عدتهن إلا أن يأتين بمعصية ظاهرة كالبذاء على الأحماء والأزواج أو الخروج من الدار قبل انقضاء العدة ، ومن يتعد هذه الحدود فقد ظلم نفسه وارتكب ما يضرها ويجعلها تندم على ما فعلت ، ثم أبان حكمة الإبقاء فى البيوت، وهى سهولة مراجعتها لميل القلب إليها وتحوّله من بغض إلى محبة .

الإيضاح

(يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) أى أيها المؤمنون إذا أردتم طلاق نسائكم فطلقوهن لزمان محسوب من عدتهن ، وهو طهر لاقربان فيه حتى لايطول عليهن زمان العدة، فإن طلقتموهن فى زمان الحيض كان الطلاق طلاقا بدعيا حراما ، والمراد بالنساء المدخولُ بهن من ذوات الأقراء، أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن ، وذوات الأشهر سيأتى حكمهنّ فيما بعد .

أخرج الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى فى آخرين عن ابن عمر « أنه طلق امرأته وهى حائض ، فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتغيظ منه ثم قال : ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها ، فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء » .

وخص النبى صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب لأن النبى إمام أمته وقدوتهم ؛ كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كيت وكيت ، قاله فى الكشاف .

والخلاصة — إن السنة فى الطلاق أن تطلق المرأة وهى طاهرة دون أن يكون قد لامسها فى هذا الطهر، أو أن يطلقها وهى حامل حملا مستبينا ، ومن هذا قسم الفقهاء الطلاق أقساما ثلاثة :

(١) طلاقُ سنة ، وهو أن يطلقها طاهرة من غير قربان ، أو حاملا حملا قد استبان .

(٢) طلاقُ بدعة وهو أن يطلقها حين الحيض أو فى طهر قد واقعها فيه ، فلا يُدرى أحملت أم لا ، والسر فى هذا أنه بعمله هذا أطال عليها العدة ، لأن هذه الحيضة لاتحسب فى العدة ، وكذا الطهر الذى بعدها ، لأنها إنما تكون بثلاث حيضات كوامل .

(٣) طلاقٌ لاهو بسنة ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها .

وقد روى عن ابراهيم النخْعى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون ألا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة ، ثم لايطلقون غير ذلك حتى تنقضى العدة ، وما كان أخسّ عندهم من أن يطلق الرجل ثلاث تطليقات . وقال مالك ابن أنس : لا أعرف طلاقا إلا واحدة ، وكان يكره الثلاث متفرقة أو مجموعة . وأبو حنيفة وأصحابه يكرهون ما زاد على الواحدة فى طهر واحد . وعند الشافعى لا بأس بإرسال الثلاث وقال : لا أعرف فى عدد الطلاق سنة ولا بدعة بل هو مباح .

والخلاصة — أن مالكا يراعى فى طلاق السنة الواحدة والوقت ، وأن أبا حنيفة يراعى التفريق والوقت ، والشافعى يراعى الوقت وحده .

(وأحصوا العدة) أى واحفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها ، لئلا تطول على المرأة ، واحفظوا الأحكام والحقوق التى تجب فيها .

وإنما خوطب الأزواج بذلك دون النساء ، لأنهم هم الذين تلزمهم الحقوق والمؤن المرتبة عليه .

(واتقوا الله ربكم) أى واخشوا الله ربكم ، فلا تعصوه فيما أمركم به من الطلاق لعدتهن ، وفى القيام بما للمعتدات من حقوق .

وفى وصفه تعالى بالربوبية مبالغة فى وجوب الامتثال لأمره ، لما فى لفظ الرب من التربية التى هى الإنعام والإكرام على ضروب لاحصر لها .

ثم بيّن بعض هذه الحقوق فقال :

(لاتخرجوهن من بيوتهن) أى لاتخرجوا المعتدات من المساكن التى كنتم تساكنونهن فيها قبل الطلاق ، غضبا عليهن أو كراهة لمساكنتهن أو لحاجة لكم إلى المساكن ، لأن تلك السكنى حق الله تعالى أوجبه للزوجات ، فليس لكم أن تتعدوه إلا لضرورة ؛ كانهدام المنزل أو الحريق أو السيل أو خوف الفتنة فى الدين .

(ولا يخرجن) أى لاتأذنوا لهن فى الخروج إذا طلبن ذلك ، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ، إذ السكنى فى البيوت حق الشرع ، فلا يسقط بالإذن ، فإن خرجن ليلا أو نهارا كان ذلك الخروج حرامًا ولا تنتهى العدة .

ثم استثنى من لزوم المكث فى البيوت ما إذا دعت الضرورة إلى الإخراج فقال :

(إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) أى لايُخرجْن إلا إذا فعلن ما يوجب حدًّا من زنا أو سرقة أو غيرهما كما أخرجه عبد بن حميد عن سعيد بن المسيِّب ، أو يبذون على الأحماء أو الأزواج ، فيحل إخراجهن من بيوتهن لبَذائهن ، وسوء خلقهن ، أو خرجن متحولات عن منازلهن اللاتى يجب عليهن أن يكملن العدة فيها ، فأيَّ ذلك فعلن فللأزواج إخراجهن من البيوت ، لإتيانهن بالفاحشة الواضحة التى ارتكبنها .

(وتلك حدود الله) أى هذه الأمور التى بينتها لكم من الطلاق للعدة ، و إحصاء العدة ، والأمر باتقاء الله ، وألا تخرج المطلقة من بيتها إلا أن تأتى بفاحشة مبينة — هى حدود الله التى حدها لكم ، فلا تتعدوها .

ثم بين عاقبة تجاوز تلك الحدود فقال :

(ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) أى ومن يتجاوز ما شرع الله لعباده من شرائع ، وما أبيح له إلى ما لم يُبَح فقد ظلم نفسه وأضرّ بها من حيث لا يدرى .

ثم بين علة هذا الضرر فقال :

(لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) أى لاتعلم أيها المرء أن الله يقلب القلوب ، فيجعل فى قلبك محبة لها ، فتندم على فراقها ، وتود الرجعة إليها ، فلايتسنى لك ذلك ، لأن الفرصة تكون قد ضاعت ، وما جرّ ذلك عليك إلا تعدى حدود الله .

والخلاصة — إن من يتعدّ حدود الله فقد أساء إلى نفسه ، فإنه لايدرى عاقبة ما هو فاعل ، فلعل الله يحدث فى قلبه بعد ذلك الذى فعل من التعدى ـ أمرا يدعو إلى عكس ما فعل ، فيبدّل البغض محبة ، والإعراض إقبالاً ، ولا يتسنى له تلافى ذلك برجعة أو استئناف نكاح فتضيع الفرصة ويندم ، ولات ساعة مندم .

تنبيه

الشريعة الإسلامية ـ وإن أباحت الطلاق ـ بغّضت فيه وقبحته وبينت أنه ضرورة لا يُلجأ إليها إلا بعد استنفاد جميع الوسائل لبقاء رباط الزوجية الذى حبّبتْ فيه وجعلته من أجلّ النعم ، فرغّبت فى إرسال حَكَمٍ من أهله وحكم من أهلها قبل حدوث الطلاق ، لعلهما يزيلان ما بين الزوجين من نفور ، كما رغبت فى أن تكون الطلقات الثلاث متفرقاتٍ ، لعل النفوس تصفو بعد الكدر ، والقلوب ترعوى عن غيها ، ولعلهما يندمان على ما فرط منهما فتكون الفرصة مواتية ، ويمكن الرجوع إلى ما كانا عليه ، بل قد يعودان إلى حال أحسن مما كانا .

روى أبو داود عن محارب بن دثار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أحل الله شيئا أبغض إليه من الطلاق » وروى الثعلبى من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتطلقوا النساء إلا من ريبة ، فإن الله عز وجل لايحب الذوّاقين ولا الذواقات». وعن ثَوْبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أيُّما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس به ، حرّم الله عليها رائحة الجنة » أخرجه أبو داود والترمذى .

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) .

شرح المفردات

فإذا بلغن أجلهن : أى قاربن انتهاء العدة ، فأمسكوهن : أى فراجعوهن ، بمعروف . أى مع حسن عشرة ، أو فارقوهن بمعروف : أى مع إعطاء الحق واتقاء المضارة ؛ كأن يراجعها ثم يطلقها تطويلا للعدة ، بالغ أمره : أى منفذ حكمه وقضاءه فى خلقه يفعل ما يشاء ، قدرا : أى تقديرا وتوقيتا .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بإيقاع الطلاق واحدة فواحدة ، ومنع الخروج من المنزل والإخراج منه إلا إذا أتين بفاحشة مبينة ، ونهى عن تعدى تلك الحدود حتى لا يحصل الضرر والندم ــ خيّر الرجل إذا شارفت عدة امرأته على الانتهاء بين أمرين :

(١) إما أن يراجعها ويعاشرها بإحسان :
(٢) وإما أن يفارقها مع أداء حقوقها التى لها مع التفضل والإكرام .

فإذا اختار الرجعة فليُشْهِد على ذلك شاهدين عدلين قطعاً للنزاع ، ودفعا للريبة .

ثم أبان أن هذه الأحكام إنما شرعت للفائدة والمصلحة . ثم ذكر قاعدة عامة وهى أن تقوى الله تفتح السبل للمرء وتخرجه من كل ضيق ، وتهديه إلى الطريق المستقيم فى دينه ودنياه ، وأن من يتوكل على ربه ، يكفه ما أهمه ، ويفرّج عنه كربه .

ثم ذكر أن أمور الحياة جميعا بقضاء الله وقدره ، فلا يجزع المؤمن مما يصيبه من النوائب ، ولا يفرح ويبطر بما يناله من خيراتها .

الإيضاح

(فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف) أى فإذا قاربت العدة على الانتهاء فإن شئتم فأمسكوهن وراجعوهن مع الإحسان فى الصحبة وحسن العشرة ، وأداء الحقوق من النفقة والكسوة ، وإن صممتم على المفارقة فلتكن بالمعروف وعلى وجه لاعنف فيه ولا مشاكسة ، مع إيفاء مالهنّ من حقوق لديكم كمؤخر صداق ، وإعطاء متعة حسنة تذّكرْن بفضلها ، ويتحدث الناس بحسن أحدوثتها ، ويكون فيها جبر لخاطرهن ، لما لحقهن من ضرر بالفراق ، وليكون فيها بعض السلوَة لهن عما فقدنه من العشير والأنيس .

ثم بين ما يحسن إذا أرادوا الرجعة فقال :

(وأشهدوا ذَوىْ عدل منكم) أى وأشهدوا على الرجعة إن اخترتموها شاهدين من ذوى العدالة ، حسما للنزاع فيما بعد ، إذ ربما يموت الزوج فيدعى الورثة أن مورثهم

لم يراجع زوجته ، ليمنعوها ميراثها ، ودفعاً للقيل والقال وتهمة الريبة ، ومخافة أن تنكر المرأة الرجعة لتقضى عدتها ، وتنكح زوجا غيره .

وهذا الإشهاد واجب عند الشافعى حين الرجعة ، مندوب حين الفرقة ، ويرى أبو حنيفة أن الرجعة لاتفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق .

ثم خاطب الشهود زجرًا لهم فقال :

(وأقيموا الشهادة لله) أى واشهدوا على الحق إذا استُشْهِدْتم ، وأدوا الشهادة على الصحة إذا أنتم دُعيتم إلى أدائها .

وإنما حث على أداء الشهادة ، لما قد يكون فيه من العسر على الشهود ، إذ ربما يؤدى ذلك إلى أن يترك الشاهد مهامّ أموره ، ولما فيها من عسر لقاء الحاكم الذى تؤدى عنده ، وقد يبعد المكان ، أو يكون للشاهد عوائق تحول بينه و بين أدائها .

(ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) أى هذا الذى أمرتكم به ، وعرفتكم عنه من أمر الطلاق ، والواجب لبعضكم على بعض حين الفراق أو الإمساك ، عظة منا لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ليعمل على نهجها وطريقتها .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما سلف وما سيأتى ، لتأكيد ما سبق من الأحكام والخروج من مشاكلها بعد اتقاء الله فقال :

(ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب) أى ومن يخش الله فلا يطلق المرأة فى الحيض حتى لاتطول عدتها ولا يضارّ المعتدة فلا يخرجها من مسكنها ، ويحتاط بالإشهاد حين الرجعة — يجعل الله له مخلصا مما عسى أن يقع فيه من الغم ويفرج عنه ما يعتريه من الكرب ، ويرزقه من جهة لاتخطر بباله ولا يحتسبها .

والخلاصة — من اتقى الله جعل له مخلصا من غم الدنيا وهمّ الآخرة وغمرات الموت وشدائد يوم القيامة .

روى عن ابن عباس أنه قال : «جاء عوف بن مالك الأشجعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله : إن ابنى أسره العدو وجزعت أمه ، فبم تأمرنى؟ قال آمرك و إياها أن تستكثرا من قول : « لاحول ولا قوة إلا بالله » فقالت المرأة : نِعْمَ ما أمرك ، فجعلا يكثران منها، فتغفل عنه العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه، فنزلت هذه الآية » أخرجه ابن مردويه .

وفى الآية إيماء إلى أن التقوى مِلاك الأمر عند الله ، وبها نيطت السعادة فى الدارين ، و إلى أن الطلاق من الأمور التى تحتاج إلى فضل تقوى ، إذ هو أبغض الحلال إلى الله ؛ لما يتضمنه من إيحاش الزوجة وقطع الألفة بينها و بين زوجها ، ولما فى الاحتياط فى العدة من المحافظة على الأنساب وهى من أجلّ مقاصد الدين ، ومن ثم شدّد فى إحصاء العدة حتى لاتختلط و يكون أمرها فوضى .

وروى عن ابن مسعود أنه قال : إن أجمع آية فى القرآن : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » وإن أكبر آية فى القرآن فرجا : « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا » .

(ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى ومن يكل أمره إلى الله و يفوض إليه الخلاص منه ـ كفاه ما أهمه فى دنياه ودينه ، والمراد بذلك أن العبد يأخذ فى الأسباب التى جعلها الله من سُنَنه فى هذه الحياة ، و يؤديها على أمثل الطرق ، ثم يكل أمره إلى الله فيما لايعلمه من أسباب لايستطيع الوصول إلى علمها ، وليس المراد أن يلقى الأمور على عواهنها و يترك السعى والعمل و يفوض الأمر إلى الله ، فما بهذا أمر الدين بدليل قوله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » وقوله صلى الله عليه وسلم « اعقلها وتوكل » إلى نحو ذلك مما هو مستفيض فى الكتاب والسنة .

وروى عن ابن عباس أنه ركب خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يومافقال

له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا غلام إنى معلّمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام وجفت الصحف» .

ثم ذكر السبب فى وجوب التوكل عليه فقال :

(إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدرا) أى إن الله تعالى منفذ أحكامه فى خلقه بما يشاء ، وقد جعل لكل شىء مقدارا ووقتا ، فلا تحزن أيها المؤمن إذا فاتك شىء مما كنت تؤمل وترجو ، فالأمور مرهونة بأوقاتها ، ومقدرة بمقادير خاصة ، كما قال : « وَكُلُّ شَىْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ » .

وَاللاَّئِى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ ، وَاللاَّئِى لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُولاَتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الطلاق السنىّ إنما يكون فى طهر لاوقاع فيه، ولم يبين مقدار العدة وكان قد ذكر فى سورة البقرة التى نزلت قبل هذه أن عدة الحائض ثلاثة قروء ذكر هنا عدة الصغار اللاتى لم يحضن، والكبار اللائى يئسن من الحيض ، وأنها ثلاثة

أشهر ، وعدة الحامل وأنها تكون بوضع الحمل ســواء كانت مطلقة أو متوفّى عنها زوجها .

أخرج الحاكم والبيهقى فى جماعة آخرين عن أبىّ بن كعب أن ناسا من أهل المدينة لما نزلت آية البقرة فى عدة النساء قالوا لقد بقى من عدة النساء عِدَد لم تذكر فى القرآن ، الصغار والكبار اللائى قد انقطع عنهن الحيض وذوات الحمل فأنزل الله تعالى فى سورة النساء القصرى : « وَاللَّائِي يَئِسْنَ » الآية .

وروى أن قوما منهم أبىّ بن كعب وخلاد بن النعمان « لما سمعوا قوله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » قال يارسول الله فما عدة من لا قرء لها من صغر أو كبر ؟ فنزلت : « وَاللَّائِي يَئِسْنَ » الآية .

الإيضاح

(واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللائى لم يحضن) أى واللائى بلغن سنّ اليأس فانقطع حيضهن لكبرهن بأن بلغن سن الخامسة والخمسين فما فوقها فعدتهن ثلاثة أشهر ، وكذا الصغار اللواتى لم يحضن ، إن شككتم وجهلتم كيف تكون عدتهن وما قدرها .

(وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ) أى وعدة الحوامل أن يضعن حملهنّ سواء كنّ مطلقات أو متوفى عنهنّ أزواجهنّ كما روى عن عمر وابنه ، فقد أخرج مالك والشافعى وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عمر أنه سئل عن المرأة يتوفى عنها زوجها وهى حامل فقال : إذا وضعت حملها فقد حلّت ، فأخبره رجل من الأنصار أن عمر بن الخطاب قال : لو ولدت وزوجها على سريره لم يدفن حلّت . وهكذا روى عن ابن مسعود فقد أخرج عنه أبو داود والنسائى وابن ماجة أنه قال : من شاء لاعنته أن الآية التى فى النساء القصرى « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ » الآية نزلت بعد سورة البقرة بكذا وكذا شهرا ، وكل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها .

وروى أن سُبيعة بنت الحرث الأسلمية كانت تحت سعد بن خولة فتوفى عنها فى حجة الوداع وهى حامل فوضعت بعد وفاته بثلاثة وعشرين يوما ، فاختضبت واكتحلت وتزينت تريد الزواج ، وأنكر ذلك عليها ، فسئل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : «إن تفعل فقد خلا أجلها» .

(ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) أى ومن يخَفِ الله ويرهبه ، فيؤدى فرائضه ويجتنب نواهيه — يسهل عليه أموره ، ويجعل له من كل ضيق فرجا ، وينر له طريق الهدى فى كل مايعرض له من المشكلات ، فإن فى قلب المؤمن نورا يهديه إلى حلّ عويصات الأمور .

وفى الآية إيماء إلى فضيلة التقوى فى أمور الدنيا والآخرة ، وأنها المخرج من كل ضيق يعرض للمرء فيهما .

(ذلك أمر الله أنزله إليكم) أى هـذا الذى شرع لـكم من الأحكام السالفة فى الطلاق والسكنى والعدة — هو أمر الله الذى أمركم به وأنزله إليكم لتأتمروا به ، وتعملوا وفق نهجه .

ثم كرر الأمر بالتقوى لأنها ملاك الأمر وعماده فى الدنيا والآخرة فقال :

(ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) أى ومن يخف الله فيؤدِّ فرائضه ويجتنبْ نواهيه — يمح عنه ذنوبه كما وعد بذلك فى كتابه: « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » ويجزل له الثواب على يسير الأعمال .

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ، وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ

مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، لاَيُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلاَّ مَا آتَاهَا ، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) .

شرح المفردات

من وُجدكم : أى من وسعكم ، وقال الفراء : أى على قدر طاقتكم ، ولا تضاروهن : أى فى النفقة والسكنى ، لتضيقوا عليهن : أى لتلجئوهن إلى الخروج بشغل المكان أو بإسكان من لايُرِدن السكنى معه ، ائتمروا : أى تآمروا وتشاوروا ، بمعروف : أى بجميل فى الأجر والإرضاع فلا يكن من الأب مماكسة ولا من الأم معاسرة ، وإن تعاسرتم : أى ضيق بعضكم على بعض بالمشاقة فى الأجر أو بطلب الزيادة ، قدر عليه : أى ضيق ، آتاه الله : أى أعطاه ، ما آتاها : أى إلا بقدر ما أعطاها من الأرزاق قلّ أو جلّ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقدار العدة للصغار والكبار والحوامل — أرشد إلى مايجب للمعتدة من النفقة والسكنى على مقدار الطاقة ، ثم أردف ذلك ببيان أن الحوامل لهنّ النفقة والسكنى مدة الحمل بالغة مابلغت ، فإذا هنّ ولدن وجب لهنّ الأجر على إرضاع المولود ، فإن لم يتفقا عليه أتى بمرضع أخرى يدفع الأب نفقتها ، والأم أحق بالإرضاع إذا هى رضيت بمثل أجرتها ، والنفقة لكل من الموسر والمعسر على قدر مايستطيع ، فالله لايكلف نفسا إلا ماتطيق .

الإيضاح

(أسكنوهنّ من حيث سكنتم من وجدكم) أى أسكنوا مطلقات نسائكم فى الموضع الذى تسكنون فيه على مقدار حالكم ، فإن لم تجدوا إلا حجرة بجانب

حجرتكم فأسكنوها فيها ، وإنما أمر الرجال بذلك ، لأن السكنى نوع من النفقة وهى واجبة على الأزواج .

ثم نهى عن مضارّة المطلقات فى السكنى فقال :

(ولا تضاروهنّ لتضيقوا عليهن) أى ولا تستعملوا معهن الضرار فى السكنى بشغل المسكان أو بإسكان غيرهنّ معهنّ ممن لايحببن السكنى معه ، لتلجئوهنّ إلى الخروج من مساكنهنّ .

ثم بيّن نفقة الحوامل فقال :

(وإن كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهنّ حتى يضعن حملهنّ) لأنه بالوضع تنقضى العدة ، وهذا حكم المطلقة طلقة بائنة ، أما المطلقة طلقة رجعية فتستحق النفقة وإن لم تكن حاملا .

وقال أبو حنيفة : تجب النفقة والسكنى لكل مطلقة وإن لم تكن ذات حمل لما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى المبتوتة : « لها النفقة والسكنى » ، لأن ذلك جزاء الاحتباس وهو مشترك بين الحامل وغيرها .

ثم بين حكم إرضاع الطفل بعد ولادته فقال :

(فإن أرضعن لكم فآتوهنّ أجورهنّ) أى فإن أرضعن لكم وهنّ طوالق قد بنّ بانقضاء عدتهنّ ، فلهنّ حينئذ أن يرضعن الأولاد ولهنّ أن يمتنعن ، فإن أرضعن فلهنّ أجر المثل ويتفقن مع الآباء أو الأولياء عليه .

وفى هذا إيماء إلى أن حق الرضاع والنفقة للأولاد على الأزواج ، وحق الإمساك والحضانة على الزوجات .

(وأتمروا بينكم بمعروف) أى وتشاوروا فيما بينكم أيها الآباء والأمهات فى شئون الأولاد بما هو أصلح لهم فى أمورهم الصحية والخلقية والثقافية ، ولا تجعلوا المال عقبة

فى سبيل إصلاحهم ، ولا يكن من الآباء مماكسة فى الأجر وسائر النفقات ، ولا من الأمهات معاسرة وإحراج للآباء ، فالأولاد هم فلذات أكبادهم ، فليحافظوا عليهم جهد المستطاع .

ثم أرشد إلى ما يجب أن يعمل إذا لم يحصل الوفاق بين الأبوين فى الإنفاق فقال :

(وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى) أى وإن ضيق بعضكم على بعض بأن شاحّ الأب فى الأجر ، أو اشتطت الأم فى طلب زيادة لا يؤديها أمثاله ، فليُحْضِرِ الأب مرضعا أخرى تقوم بالإرضاع ، فإن رضيت الأم بمثل ما استؤجرت به الأجنبية فهى أحق بولدها .

وفى الآية إيماء إلى معاتبة الأم ، فهو كقولك لمن تطلب منه حاجة فيتوانى فى قضائها : إن لم تقضها فسيقضيها غيرك ، وكأنه قال له : إنها ستقضى وأنت ملوم .

وإنما خص الأم بالعتاب ، لأن المبذول من جهتها هو لبنها لولدها ، وهو ليس بمال ولا مما يضنّ به فى العرف ولا سيما من الأم ، والمبذول من جهة الأب هو المال وهو مضنون به فى العادة ، فهى إذًا أجدر باللوم وأحق بالعَتْب .

هذا إذا قبل الولد ثدى مرضع أخرى ، فإن لم يقبل إلا ثدى الأم وجب عليها الإرضاع .

ثم بين مقدار الإنفاق بقوله :

(لينفق ذو سعة من سعته) أى لينفق الوالد على المرضع التى طُلِّقت منه بقدر سعته وغناه .

(ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) أى ومن كان رزقه بمقدار القوت فحسبُ فلينفق على مقدار ذلك .

(لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) أى لا يكلف الله أحدا من النفقة على من تلزمه نفقته بالقرابة والرحم إلا بمقدار ما آتاه من الرزق ، فلا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغنى .

ونحو الآية قوله : « لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » .

ثم بين أن الأرزاق تتحول من عسر إلى يسر والعكس بالعكس فقال :

(سيجعل الله بعد عسر يسرا) أى سيجعل الله بعد شدة رخاء ، ومن بعد ضيق سعة ، ومن بعد فقر غنى ، فالدنيا لاتدوم على حال كما قال سبحانه : « إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » .

وهذا كالبشرى للمؤمنين الذين كان يغلب عليهم الفقر والفاقة فى ذلك الحين .

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا (١١) .

شرح المفردات

وكأين من قرية : أى كثير من أهل القرى ، عتت : أى تجبرت وتكبرت ، نكراً : أى منكراً عظيما ، وبال أمرها : أى عاقبة عتوّها ، خسراً : أى خسارة فى الآخرة ، ذكراً : أى قرآنا ، رسولا : أى وأرسل رسولا .

المعنى الجملى

بعد أن أمر بأن الطلاق لا يكون إلا فى أوقات خاصة ، وبأنه يجب انقضاء العدة حتى تحل المرأة لزوج آخر ، وذكر مدة العدة وما يجب للمعتدة من النفقة والكسوة ، ونهى عن تجاوز حدود الله ، وأن من يتجاوزها يكون قد ظلم نفسه ؛ توعد هنا من خالفوا أمره ، وكذبوا رسله ، وسلكوا غير ماشرعه ، وأنذرهم بأن يحل بهم مثل ماحل بالأمم السالفة التى كذبت رسلها ، فأخذها أخذ عزيز مقتدر ، وأصبحت كأمس الدابر وصارت مثلا فى الآخرين .

الإيضاح

(وكأيّن من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديداً وعذبناها عذابا نكراً) أى وكثير من أهل القرى خالفوا أمر ربهم ، فكذبوا الرسل الذين أرسلوا إليهم وتّجوا فى طغيانهم يعمهون ، فحاسبناهم حسابا عسيراً ، فاستقصينا عليهم ذنوبهم ، وناقشناهم على النقير والقطمير ، وعذبناهم عذابا نكرا فى الآخرة ، وعبر بالماضى عن المستقبل دلالة على التحقق كما فى قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ » .

ثم بين أن هذا جزاء ما كسبت أيديهم فقال :

(فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً) أى فجنت ثمار ماغرست أيديها ولا يُجنَى من الشر إلا الشر كما جاء فى أمثالهم : إنك لا تجنى من الشوك العنب . فكان عاقبة أمرها الخسران والنكال الذى لا يُقدر قدْره .

ثم أكد هذا الوعيد بقوله :

(أعد الله لهم عذابا شديداً) أى هيأ الله لهم العذاب المرتقب ، لتماديهم فى طغيانهم وإعراضهم عن اتباع الرسل فيما جاءوا به من عند ربهم .

ثم نبه المؤمنين إلى تقوى الله حتى لايصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم فقال :

(فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا) أى فخافوا أيها المؤمنون عقاب الله ، فأنتم أصحاب العقول الراجحة ، والفِطَر السليمة ، واحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بمن قبلكم ، وتذكروا فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

ثم بين ما يكون مذكرا لهم وداعيا لتقوى الله فقال :-

(قد أنزل الله إليكم ذكرا . رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) أى قد أنزل الله إليكم ياذوى البصائر ذكرا لكم وهو القرآن الكريم يذكركم به ، لتستمسكوا بحبله المتين وتعملوا بطاعته وأرسل إليكم رسولا يتلو عليكم آيات هذا الكتاب الذى أنزل عليه ، وهى واضحات لمن تدبرها وعقلها ، كى يخرج من لديه استعداد للهدى من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان إذا هو أنعم فى النظر فيها ، وأجال الفكر فى أسرارها ومغازيها ، فهى النبراس الساطع ، والضوء اللامع ، لمن كان له قلب أوألقى السمع وهو شهيد .

ثم بين جزاء الإيمان والعمل الصالح فقال :

(ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا) أى ومن يصدق بالله وعظيم قدرته ، وبديع حكمته ، ويعمل بطاعته — يدخله بساتين تجرى من تحت أشجارها الأنهار ماكثين فيها أبدا لايموتون ولا يخرجون منها ، وقد وسع الله لهم فيها الأرزاق من مطاعم ومشارب مالاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ، يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ، لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا (١٢) .

المعنى الجملى

بعد أن أنذر سبحانه مشركى مكة بأنهم إن لم يتبعوا أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم يحل بساحتهم مثل ما حل بسائر الأمم قبلهم ممن كذبوا رسلهم وعتوا عن أمر ربهم فاستؤصلوا وبادوا فى الدنيا ، وسيحل بهم العذاب الذى لا مرد له فى الآخرة — ذكر هنا عظيم قدرته وسلطانه ، وبديع خلقه للعالم العلوى والسفلى ليكون ذلك باعثا على اتباع ماشرع من الدين ، واستجابة دعوة الرسول ، والعمل بما أنزل عليه من تشريع فيه سعادة الدارين .

الإيضاح

(الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) أى الله هو الذى خلق السموات السبع وخلق مثلهن فى العدد من الأرضين .

وهذا الأسلوب فى اللغة لايفيد الانحصار فى السبعة ، وإنما يفيد الكثرة ، فالعرب تعنى فى كلامها بذكر السبعة والسبعين والسبعمائة الكثرة فحسب ؛ ويؤيد هذا أن علماء الفلك فى العصر الحاضر قالوا : إن أقل عدد ممكن من الأرضين الدائرة حول الشموس العظيمة التى نسميها نجوما لايقل عن ثلثمائة مليون أرض ، ولا شك أن هذا قول هو بالظن أشبه منه باليقين .

روى ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما السموات السبع ومافيهن وما بينهن ، والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة » .

وروى عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى : « سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » الآية قوله : لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم بتكذيبكم بها .

وهذا من الحبر دليل على أن هناك عوالم كثيرة لايجدر بالعلماء أن يحدثوا عنها العامة ، فإن عقولهم تضل فى فهمها ، فلتبق فى صدور العلماء وأهل الذكر حتى لايفتتنوا بها .

(يتنزل الأمر بينهن) أى يجرى أمر الله وقضاؤه وقدره بينهن ، وينفذ حكمه فيهن ، فهو يدبر ما فيها وفق علمه الواسع ، وحكمته فى إقامة نظمها ، بحسب العدل والمصلحة .

أخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة قال : « فى كل سماء وفى كل أرض خلق من خلقه تعالى ، وأمر من أمره ، وقضاء من قضائه عز وجل » .

(لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما) أى ينزل قضاء الله وأمره بين ذلك ، كى تعلموا أيها الناس كنه قدرته وسلطانه ، وأنه لايتعذر عليه شئ أراده ، ولا يمتنع عليه أمر شاءه ، فهو على مايشاء قدير ، ولتعلموا أن الله بكل شئ من خلقه محيط علما لايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

فخافوا أيها المخالفون أمر ربكم فإنه لايمنعه من عقوبتكم مانع ، وهو قادر على ذلك ، ومحيط بأعمالكم لا يخفى عليه منها خاف ، وهو محصيها عليكم ، ليجازيكم بها يوم تجزى كل نفس بما كسبت .

ماتضمنته هذه السورة من الشئون

اشتملت هذه السورة على أحكام شرعية ، ومناهج دينية ، وفتاوى إسلامية ، وضعت لإقامة العدل بين الخلق ؛ وما أهل الأرض ولا أحكامهم ولا شرائعهم ولا دياناتهم إلا لمحة من نور العدل العام ، وقبضة من فيضه ، وزهرة من شجرته ، فإن قضى القضاة على كراسى الحكم بين العباد ، فأعطوا زيداً مايجب على عمرو ، وقالوا للحامل عدتك وضع الحمل ، فكم بين السموات والأرض من قضاء فى هذا

الفضاء الواسع الصامت لفظا ، الناطق معنى ، وكم من حكم بيننا نرى أثره ، ولا نسمع النطق به ، نرى الشمس محكوما عليها أن تطلع من مواضع فى المشرق ، وتغيب فى مواضع فى المغرب لاتجوزها ، ونرى الرياح محكوما عليها ، والسحب مأمورة ، والأنهار جارية ، والمزارع قد حكم عليها أن تكون فى زمن خاص ، وأمكنة خاصة ؛ فليس للقطن أن ينبت فى البلاد الباردة ، ولا أن يثمر فى زمن الشتاء ، ولا للنخل أن يثمر إلا بعد عدد من السنين ، وكل ذلك حكم لمصلحة الناس ، وسعادتهم فى دنياهم .

فانظر أىّ الحكمين أكثر منفعة ؟ أحكم لمصلحة أشخاص متنازعين ، أم حكم لسعادة هؤلاء المتنازعين من كل أهل ملة ودين ؟ .

سورة التحريم

هى مدنية ، وآيها ثنتا عشرة ، نزلت بعد الحُجُرات .

ومناسبها لما قبلها :

(١) أن سورة الطلاق فى حسن معاشرة النساء والقيام بحقوقهن ، وهذه السورة فيما حصل منهن مع النبى صلى الله عليه وسلم تعليما لأمته أن يحذروا أمر النساء ، وأن يعاملوهن بسياسة اللين كما عاملهن النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، وأن ينصحوهن نصحاً مؤثراً .

(٢) أن كلتيهما افتتحا بخطاب النبى صلى الله عليه وسلم .

(٣) أن تلك فى خصام نساء الأمة ، وهذه فى خصومة نساء النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أفردن بالذكر تعظيما لمكانتهن .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ، وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ، فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ؟ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ

أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) .

شرح المفردات

تحرّم : أى تمتنع ، ما أحل الله لك : هو العسل ، تبتغى : أى تطلب ، فرض : أى شرع وبيّن كما جاء فى قوله : « سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا » ، وتحلة أيمانكم : أى تحليلها بالكفارة ، وتحلة القسم تستعمل على وجهين :

(١) أحدهما تحليله بالكفارة كما فى الآية .

(٢) ثانيهما بمعنى الشىء القليل وهذا هو الأكثر كما جاء فى الحديث : « لن يلج النار إلا تحلّة القسم » أى إلا زمنا يسيرا .

مولاكم : أى وليكم وناصركم ، بعض أزواجه : هى حفصة على المشهور ، نبأت به : أى أخبرت عائشة به ، وأظهره : أى أطلعه وأعلمه قول حفصة لعائشة ، عرّف : أى أعلمها ببعض الحديث الذى أفشته ، وأعرض عن بعض : أى لم يخبرها به ، إن تتوبا : أى حفصة وعائشة ، صغت قلوبكما : أى عدلت ومالت إلى ما يجب للرسول صلى الله عليه وسلم من تعظيم وإجلال ، وإن تظاهرا عليه : أى تتظاهرا وتتعاونا على إيذاء الرسول ، مولاه : أى وليه وناصره ، ظهير : أى ظهراء معاونون ، وأنصار مساعدون ، مسلمات : أى خاضعات لله بالطاعة ، مؤمنات : أى مصدّقات بتوحيد الله مخلصات ، قانتات : أى مواظبات على الطاعة ، تائبات : أى مقْلعات عن الذنوب ، عابدات : أى متعبدات متذللات لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، سائحات : أى صائمات ، وسمى الصائم بذلك من حيث إن السائح لازاد معه ، ولا يزال ممسكا حتى يجد الطعام ؛ كالصائم لايزال كذلك حتى يجىء وقت الإفطار .

المعنى الجملى

روى البخارى ومسلم عن عائشة أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلْوَاء والعسل ، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه ، وكان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا ، فتواطأتُ أنا وحفصة أنَّ أيتَّنا دخل النبى صلى الله عليه وسلم عليها فلتقل له : : إنى أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير (صمغ حُلْوٌ له رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له العُرْفُط يكون بالحجاز) ، فقال لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له وقد حلفتُ ، لاتخبرى بذلك أحدا » .

وقد كانت عائشة وحفصة متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، ويقال إن التى دخل عليها النبى صلى الله عليه وسلم وحرّم على نفسه العسل أمامها هى حفصة فأخبرت عائشة بذلك ، مع أن النبى صلى الله عليه وسلم استكتمها الخبر كما استكتمها ما أسرّها به من الحديث الذى يسرّها و يسُر عائشة ، أن أباها وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتى من بعدى ، فالسر كان لها بأمرين :

(١) تحريم العسل الذى كان يبغيه عند زينب .

(٢) أمر الخلافة لأبويهما من بعده .

الإيضاح

(يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك ؟) أى يأيها النبى لم تمتنع عن شرب العسل الذى أحله الله لك ، تلتمس بذلك رضا أزواجك ؟

وهذا عتاب من الله على فعله ذلك ، لأنه لم يكن عن باعث مرضى ، بل كان طلباً لمرضاة الأزواج .

وفى هذا تنبيه إلى أن ماصدر منه لم يكن مما ينبغى لمقامه الشريف أن يفعله .

وفى ندائه صلى الله عليه وسلم بيأيها النبى فى مفتتح العتاب حسن تلطف ، وتنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام ، على نحو ماجاء فى قوله : « عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ؟ » .

(والله غفور رحيم) أى والله غفور لذنوب التائبين من عباده ، وقد غفر لك امتناعك عما أحله لك ، رحيم بهم أن يعاقبهم على ماتابوا منه من الذنوب

وإنما عاتبه على الامتناع عن الحلال وهو مباح سواء كان مع اليمين أو بدونه ، تعظيما لقدره الشريف ، وإجلالا لمنصبه أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه جريا على ما ألف من لطف الله به ، وإيماء إلى أن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامى يعدّ كالذنب وإن لم يكن فى نفسه كذلك .

(قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) أى قد شرع لكم تحليل أيمانكم بالكفارة عنها ، فعليك أن تكفر عن يمينك. وقد روى «أنه عليه الصلاة والسلام كفر عن يمينه فأعتق رقبة (عبدا أو أمة) » .

(والله مولاكم) أى والله متولى أموركم بنصركم على أعدائكم ، ومسهل لكم سبل الفلاح فى دنياكم وآخرتكم ، ومنير لكم طرق الهداية إلى ما فيه سعادتكم فى معاشكم ومعادكم .

(وهو العليم الحكيم) أى وهو العليم بما يصلحكم فيشرعه لكم ، الحكيم فى تدبير أموركم ، فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا وَفْقَ ماتقتضيه المصلحة .

ثم ساق ماهو كالدليل على علمه فقال :

(وإذ أسرّ النبى إلى بعض أزواجه حديثا ، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض) أى واذكر حين أسر النبى صلى الله عليه وسلم إلى حفصة أنه كان يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، وقال لن أعود له وقد حلفتُ ، لاتخبرى بذلك أحدا ، فلما أخبرت عائشة بما استكتمها من السر ، وأطلعه الله على مادار بين حفصة وعائشة بما كان قد طلب من حفصة أن تكتمه — أخبر حفصة

ببعض الحديث الذى أفشته وهو قوله لها : كنتُ شربت عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود ، وأعرض عن بعض الحديث وهو قوله وقد حلفت ، فلم يخبرها به تكرمًا منه ، لما فيه من مزيد خجلتها ، ولأنه صلى الله عليه وسلم ما كان يود أن يشاع عنه اهتمامه بمرضاة أزواجه إلى حد امتناعه عن تناول ما أحل الله له .

(فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا ؟ قال نبأنى العليم الخبير) أى فلما أخبر حفصة بما دار بينها و بين عائشة من الحديث ، قالت من أنبأك بهذا ؟ ظنًّا منها أن عائشة قد فضحتها بإخبارها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أخبرنى ربى العليم بالسر والنجوى ، الخبير بما فى الأرض والسماء لايخفى عليه شىء فيهما .

وفى الآية إيماء إلى أمور اجتماعية هامة :

(١) أنه لامانع من الإباحة بالأسرار إلى من تركن إليه من زوجة أو صديق .

(٢) أنه يجب على من استُكْتِم الحديث أن يكتمه .

(٣) أنه يحسن التلطف مع الزوجات فى العتب والإعراض عن الاستقصاء فى الذنب .

ثم وجه الخطاب لحفصة وعائشة مبالغة فى العتب فقال :

(إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) أى إن تتوبا من ذنبكما وتُقْلِعا عن مخالفة رسوله صلى الله عليه وسلم فتحبّا ما أحب وتكرها ما كرهه — فقد مالت قلوبكما إلى الحق والخير ، وأديتما مايجب عليكما نحوه صلى الله عليه وسلم من إجلال وتكريم لمنصبه الشريف .

روى عن ابن عباس أنه قال: لم أزل حريصا أن أسأل عمر رضى الله عنه عن المرأتين من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله لهما « إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ » الآية . حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق نزل ليتوضأ فصببت على يديه ، فقلت يا أمير المؤمنين : من المرأتان من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم اللتان

قال الله لهما « إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ » الآية ؟ فقال واعجباً لك يابن عباس هما عائشة وحفصة ، ثم أخذ يسوق الحديث .

ثم ذكر سبحانه أنه حافظه وحارسه فلا يضره أذى مخلوق فقال :

(وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه ، وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) أى وإن تتعاونا على العمل لما يؤذيه ويسوءه من الإفراط فى الغيْرة وإفشاء سره — فإن يضره ذلك شيئا ، فإن الله ناصره فى أمر دينه وسائر شئونه على كل من يتصدى لما يكرهه ، وجبريل والمؤمنون الصالحون والملائكة مظاهرون له ومعينون .

وقد أعظم سبحانه شأن النصرة لنبيه على هاتين الضعيفتين ، للإشارة إلى عظم مكر النساء ، والمبالغة فى قطع أطماعهما بأنه ربما شفع لهما مكانتهما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند المؤمنين لأمومتهما لهم ، وكرامة له صلى الله عليه وسلم ورعاية لأبويهما ، ولتوهين أمر تظاهرهما ، ودفع ماعسى أن يتوهمه المنافقون من ضرره فى أمر النبوة ، وقهر أعداء الدين ، إذ قد جرت العادة بأن الشئون المنزلية تشغل بال الرجال وتضيع زمنا من تفكيرهم فيها ، وقد كانوا أحق به فى التفكير فيما هو أجدى نفعاً ، وأجلّ فائدة .

ثم حذرهما بما يلين من قناتهما ، ويخفض من غُلَوائهما ، ويطمئن من كبريائهما فقال :

(عسى ربه إن طلقكنّ أن يبدله أزواجا خيرا منكنّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا) أى عسى الله أن يعطيه (صلى الله عليه وسلم) بدلكن أزواجا خيرا منكنّ إسلاما وإيمانا ، ومواظبة على العبادة ، وإقلاعا عن الذنوب ، وخضوعا لأوامر الرسول ، بعضهنّ ثيبات وبعضهنّ أبكارا ، إن هو قد طلقكنّ .

والخلاصة — احذرن أيتها الأزواج من إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والتألب عليه ، والعمل على مايسوؤه ، فإنه ربما أحرج صدره فطلقكنّ وأبدله الله من هو خير منكنّ فى الدين والصلاح والتقوى ، وفى الشئون الزوجية ، فأعطاه بعضهنّ أبكارا و بعضهنّ ثيبات .

ولاشىء أشد على المرأة من الطلاق ، ولا سيما إذا استبدل خير منها بها .

روى البخارى عن أنس قال : قال عمر : اجتمع نساء النبى صلى الله عليه وسلم فى الغَيْرة عليه ، فقلت : عسى ربه إن طلقكنّ أن يبدله أزواجا خيرا منكنّ فنزلت هذه الآية .

وروى عن أنس عن عمر قال : بلغنى عن بعض أمهاتنا أمهات المؤمنين شدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذاهنّ إياه ، فاستقريتهنّ امرأة امرأة أعظها وأنهاها عن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : إن أبيتنّ أبدله الله خيرا منكنّ حتى أتيت على زينب ، فقالت يابن الخطاب : أما فى رسول الله مايعظ نساءه حتى تعظهن أنت فأمسكت ، فأنزل الله : « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ » الآية .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ، وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) .

شرح المفردات

قوا أنفسكم : أى اجعلوا لها وقاية من النار بترك المعاصى، وأهليكم : أى بحملهم على ذلك بالنصح والتأديب ، والوقود (بفتح الواو) : ماتوقد به النار ، والحجارة : هى الأصنام التى تعبد لقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ » ملائكة : هم خزنتها التسعة عشر ، غلاظ : أى غلاظ القلوب لايرحمون إذا استُرْحِمُوا ، شداد : أى أقوياء الأبدان ، والتوبة النصوح : هى الندم على مافات والعزم على عدم العودة إلى مثله فيما هو آت .

المعنى الجملى

بعد أن أمر بعض نساء النبى صلى الله عليه وسلم بالتوبة عما فرط من الزلات ، وأبان لهم أن الله كالئ رسوله وناصره ، فلا يضره تظاهرهن عليه ، ثم حذرهن من التمادى فى مخالفته صلى الله عليه وسلم خوفا من الطلاق وحرمانهم من الشرف العظيم بكونهنّ أمهات المؤمنين ومن استبدالهنّ بغيرهنّ من صالحات المؤمنات — أمر المؤمنين عامة بوقاية أنفسهم وأهليهم من نار وقودها الناس والحجارة يوم القيامة ، يوم يقال للكافرين : لاتعتذروا فقد فات الأوان ، وإنما تلقون جزاء ماعملتم فى الدنيا ، ثم أمر المؤمنين أن يقلعوا عن زلاتهم ، وأن يتوبوا توبة نصوحا ، فيندموا على مافرط منهم من الهفوات ، ويعزموا على عدم العودة فيما هو آت ، ليكفر الله عنهم سيئاتهم ويدخلهم جنات النعيم .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة) أى أيها الذين صدّقوا الله ورسوله : لِيُعْلِم بعضكم بعضا ماتتقون به النار وتدفعونها عنكم ، إنه طاعة الله تعالى وامتثال أوامره ، ولتعلّموا أهليكم من العمل بطاعته مايقون به أنفسهم منها ، واحملوهم على ذلك بالنصح والتأديب .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » وقوله : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » .

روى أن عمر قال حين نزلت يارسول الله : نقى أنفسنا ، فكيف لنا بأهلينا ؟ فقال عليه السلام « تنهونهن عما نهاكم الله عنه ، وتأمرونهن بما أمركم الله به ، فيكون ذلك وقاية بينهم وبين النار » .

أخرج ابن المنذر والحاكم فى جماعة آخرين عن علىّ كرم الله وجهه أنه قال فى الآية : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدّبوهم .

والمراد بالأهل مايشمل الزوجة والولد والعبد والأمة .

وفى الآية إيماء إلى أنه يجب على الرجل تعلّم مايجب من فرائض الدين وتعليمها لهؤلاء ، وقد جاء فى الحديث : « رحم الله رجلا قال يا أهلاه : صلاتكم ، صيامكم ، زكاتكم ، مسكينكم ، يتيمكم ، جيرانكم ، لعل الله يجمعكم معهم فى الجنة » .

(عليها ملائكة) أى موكّل عليها و يلى أمرها وتعذيب أهلها تسعة عشر ملكا هم زبانيتها الذين سيأتى ذكرهم فى سورة المدثر فى قوله تعالى : « سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَاسَقَرُ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » .

(غلاظ شداد) أى غلاظ على أهل النار أشداء عليهم .

ثم بين عظيم طاعتهم لربهم فقال :

(لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون) أى لايخالفون أمره ، بل يؤدون مايؤمرون به فى وقته بلا تراخ فلا يقدمونه عنه ولا يؤخرونه .

وقد أفادت الجملة الأولى نفى العناد والاستكبار عنهم فهى كقوله: « لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ » وأفادت الجملة الثانية نفى الكسل عنهم فهى كقوله تعالى : « وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ » .

وخلاصة ذلك — إنهم يمتثلون الأمر ولا يمتنعون عن تنفيذه ، بل يؤدونه من غير تثاقل ولا توان .

وبعد أن ذكر شدة العذاب فى النار واشتداد الملائكة فى الانتقام من أعداء الله الكافرين — بين أنه يقال للكافرين لافائدة فى الاعتذار لأنه توبة ، والتوبة غير مقبولة بعد الدخول فى النار فقال :

(يأيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم) فقد فات الأوان ، ولا يجدى رجاء ولا اعتذار ، فلاتَ ساعة مندم .

ندم البغاةُ ولاتَ ساعةَ مَنْدَمٍ والبغْىُ مَرْتَعُ مبتغيه وخِيمُ

ثم بين السبب فى عدم فائدة الندم فقال :

(إنما تجزون ما كنتم تعملون) أى لأنكم إنما تثابون اليوم وتعطون جزاء أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا ، فلا تطلبوا المعاذير منها .

والخلاصة — إن هذه الدار دار جزاء لادار عمل ، وأنتم قد دسّيتم أنفسكم فى الدنيا بالكفر والمعاصى بعد أن نهيتم عنها ، فاجنوا ثمر ماغرستم ، واشربوا من الكأس التى قد ملأتم .

وبعد أن ذكر أن التوبة فى هذا اليوم لاتجدى نفعا — نبّه عباده المؤمنين إلى المبادرة بالتوبة النصوح فقال :

(يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه) أى أيها الذين صدقوا الله ورسوله : ارجعوا من ذنوبكم إلى طاعة الله وإلى مايرضيه عنكم — رجوعا لاتعودون فيه أبدا ، عسى ربكم أن يمحوا سيئات أعمالكم التى سلفت منكم ، ويدخلكم بساتين تجرى من تحت أشجارها الأنهار حين لايخزى الله محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : التوبة النصوح أن يندم العبد على الذنب الذى أصابه ، فيعتذر إلى الله ثم لايعود أبدا ، كما لايعود اللبن إلى الضَّرْع ، وهكذا روى عن عمرو بن مسعود وأبىّ بن كعب والحسن وغيرهم .

وقال الإمام النووى : التوبة النصوح ما استجمعت ثلاثة أمور :

(١) الإقلاع عن المعصية .

(٢) الندم على فعلها .

(٣) العزم الجازم على ألا يعود إلى مثلها أبدا .

فإن كانت المعصية تتعلق بآدمى وجب رد الظلامة إلى صاحبها أو وارثه ، أو تحصيل البراءة منه .

والخلاصة — إن المعصية إن كانت فى خالص حق الله كفى فيها الندم كما فى الفِرار من الزحف وترك الأمر بالمعروف ، وإن تعلقت بحقوق العباد لزم مع الندم العزم على إيصال حق العبد أو بدله إليه إن كان الذنب ظلما كما فى الغصب والقتل العمد ، والاعتذار إليه إن كان إيذاء كما فى الغيبة إذا بلغته ، ولا يلزم تفصيل ما اغتابه به إلا إذا بلغه على وجه أفحش .

وجىء بكلمة (عسى) التى تفيد الطمع فى حصول العفو فحسب ، مع أن الله سبحانه وعد بقبول التوبة — جريا على سنن الملوك فى التخاطب ، فإنهم يقولون

إذا أرادوا فعلا : عسى أن نفعل كذا ، و إشعارا بأن ذلك تفضل منه سبحانه ، والتوبة غير موجبة له ، وأن العبد ينبغى أن يكون بين خوف ورجاء ، وإن بالغ فى إقامة وظائف العبادة .

ثم بين ما يكون للنبى والذين آمنوا معه من علامات الظفر والفوز بالمطلوب فقال:

(نورهم يسعى بين أيديهم و بأيمانهم) أى نورهم يسعى بين أيديهم حين يمشون و بأيمانهم حين الحساب ، لأنهم يؤتون الكتاب بأيمانهم وفيه نور وخير لهم .

ثم بين مايطلبونه من ربهم فقال :

(يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا) أى يسألون ربهم أن يبقى لهم نورهم فلا يطفئه حتى يجوزوا الصراط ، حين يقول لهم المنافقون والمنافقات : انظرونا نقتبس من نوركم ، وقد تقدم نحو هذا فى سورة الحديد ، ويطلبون أيضا منه أن يستر عليهم ذنوبهم ، ولا يفضحهم بعقوبتهم عليها حين الحساب .

ثم ذكروا مايطمعهم فى إجابة الدعاء فقالوا :

(إنك على كل شىء قدير) أى إنك على إتمام نورنا ، وغفران ذنوبنا ، وكل مانرجو منك ونطمع — قدير يار بنا ، فاللهم أجب دعاءنا ، ولا تخيب رجاءنا .

وقد روى أن أدناهم منزلة من يكون نوره بقدر مايبصر موطئ قدمه ، لأن النور على قدر العمل .

وروى أن السابقين إلى الجنة يمرون على الصراط مثل البرق ، ويمر بعضهم كالريح ، و بعضهم يحبو حبوًا ويزحف زحفا ، وهم الذين يقولون : « رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا » .

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) .

شرح المفردات

الجهاد تارة يكون بالسيف وأخرى بالحجة والبرهان ، واغلظ عليهم : أى شدّد ، والمأوى : مكان الإيواء والإقامة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه المؤمنين بالتوبة النصوح والرجوع إلى الله والإخبات إليه . أمر رسوله بقتال الكفار الذين يقفون فى سبيل الدعوة إلى الإيمان بالله ، و بوعيد المنافقين والغلظة عليهم حتى يثوبوا إلى رشدهم ، وذكر أن جزاءهم فى الآخرة جهنم و بئس المقيل والمأوى .

الإيضاح

(يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) أى جاهد الكفار بالسيف وقاتلهم قتالا لاهوادة فيه ، وجاهد المنافقين بالإنذار والوعيد و بيان سوء المنقلب ، وعنفّهم بفضيحة عاجلة تبين قبح طواياهم وخبث نفوسهم ، كما حدث منه صلى الله عليه وسلم فى المسجد الجامع لبعض المنافقين على ملأ من الناس فقال : اخرج يافلان ، اخرج يافلان ، وأخرج منهم عدداً كثيراً .

ثم بين سوء عاقبتهم فقال :

(ومأواهم جهنم و بئس المصير) أى وسيكون مسكنهم جهنم و بئس المثوى والمقيل .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا

وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) .

شرح المفردات

ضرب المثل : ذكر حال غريبة لتعرف بها حال أخرى تشاكلها فى الغرابة ، تحت عبدين : أى فى عصمتهما ، فخانتاهما : أى نافقتا فأخفتا الكفر وأظهرتا الإيمان ، وكانت امرأة نوح تقول لقومه : إنه مجنون ، وامرأة لوط تزل قومه على نزول أضيافه عليه ، فلم يغنيا عنهما : أى لم يفيداهما ولم يجزيا عنهما من الله شيئا ، امرأة فرعون : على ماقيل هى آسية بنت مزاحم ، نجنى من فرعون وعمله : أى خلصنى منه فإنى أبرأ إليك منه ومن عمله ، والقوم الظالمون : هم الوثنيون أقباط مصر ، وأحصنت فرجها : أى حفظته وصانته ، والفرج : شق جيب الدرع (القميص) إذ الفرج لغة كل فرجة بين الشيئين، ويراد بذلك عفتها ، وكلمات ربها : أى شرائعه وكتبه التى أنزلها على رسله ، والقانتين : أى الطائعين المخبتين إلى الله الممتثلين أوامره .

المعنى الجملى

بعد أن أمر عباده المؤمنين بالتوبة النصوح بالندم على مافات ، وعدم العودة فيما هو آت ، وأمر رسوله بجهاد الكافرين والمنافقين والغلظة لهم فى القول والعمل . ذكر هنا أن النفوس إن لم تكن مستعدة لقبول الإيمان ، وفى جوهرها صفاء ونقاء

فلا تجدى فيها العظة والعبرة ولا مخالطة المؤمنين المتقين ، وضرب لذلك المثل بامرأة نوح وامرأة لوط فقد كانتا فى بيت النبوة ولم يلن قلبهما للإيمان والإسلام .

كذلك إذا كان جوهر النفس نقيا خالصا من كدورة الكفر والنفاق فمجاورتها للكفرة وعشرتها إيام لاتغير من حالها شيئا ، ولا يؤثر فيها ضلال الضالين ولا عتو الظالمين ، وضرب لذلك مثل امرأة فرعون التى ألحف عليها فرعون وقومه أن تعتنق الوثنية التى كانوا يدينون بها ، وتعتقد ألوهيته هو فأبت وجاهدت فى الله حق جهاده حتى لاقت ربها وهى آمنة مطمئنة قريرة العين بما دخل فى قلبها من نور الإيمان ، وكذلك مريم بنة عمران التى عفت فآتاها الله الشرف والكرامة ، وأنجبت نبى الله عيسى ، وصدقت بجميع شرائعه وكتبه وكانت من العابدين القانتين .

وفى هذا المثل إيماء إلى أن قرابة المشركين للنبى صلى الله عليه وسلم لاتجديهم نفعا بعد كفرهم وعداوتهم له وللمؤمنين ، فإن الكفر قد قطع العلائق بينه و بينهم وجعلهم كالأجانب ، بل أبعد منهم كحال امرأة نوح وامرأة لوط لما خانتاهما ، كما تضمن التعريض بأمى المؤمنين حفصة وعائشة لما فرط منهما ، والتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده .

الإيضاح

(ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) أى ضرب الله مثلا يبين به حال الكافرين الذين لم ينتفعوا بعظات المؤمنين الصادقين من النبيين والمرسلين لظلمة قلوبهم وسوء استعدادهم وفساد فطرتهم — امرأة نوح وامرأة لوط إذ كانتا فى عصمة نبيّيْن يمكنهما أن ينتفعا بهديهما و يحصّلا مافيه سعادتهما فى معاشهما ومعادهما ، لكنهما أبتا ذلك وعملتا مايدل على الخيانة والكفر ، فاتهمت الأولى زوجها بالجنون ، وكانت الثانية ترشد قوم لوط إلى ضيوفه لمآرب خبيثة ،

فلم يدفع عنهما قربهما من ذينك العبدين الصالحين شيئا ، وحاق بهما سوء ماعملتا وسيحل بهما عقاب الله ، وسيدخلان النار فى زمرة داخليها جزاء وفاقا لما اجترحتا من السيئات ، وما دسّتا به أنفسهما من كبير الآثام ، وعظيم المعاصى .

وفى هذا تعريض بأمهات المؤمنين ، وتخويف لهنّ بأنه لايفيدهنّ — إن أتين بمعصية — اتصالهُنّ بالنبى صلى الله عليه وسلم وكونهنّ فى عصمته .

وبعد أن ضرب مثلا يبين به أن وصلة الكافرين بالمؤمنين لاتفيدهم شيئا . أرشد إلى عكس هذا فأفاد أن اتصال المؤمنين بالكافرين لايضرهم شيئا فقال :

(وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين) أى وجعل الله حال امرأة فرعون مثلا يبين به أن وصلة المؤمنين بالكافرين لاتضرهم شيئا إذا كانت النفوس خالصة من الأكدار ، فقد كانت تحت أعدى أعداء الله فى الدنيا ، وطلبت النجاة منه ومن عمله ، وقالت فى دعائها : رب اجعلنى قريبا من رحمتك ، وابن لى بيتاً فى الجنة ، وخلصنى من أعمال فرعون الخبيثة ، وأنقذنى من قومه الظالمين .

وفى هذا دليل على أنها كانت مؤمنة مصدّقة بالبعث ، ومن سنن الله أن لاتزر وازرة وزر أخرى ، وأن لكل نفس ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت .

(ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) أى وضرب الله مثلا للذين آمنوا حال مريم وما أوتيت من كرامة الدنيا وكرامة الآخرة ، فاصطفاها ربها مع أن أكثر قومها كانوا كفاراً ، من قِبَل أنها منعت جيب درعها جبريل عليه السلام وقالت له : « إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا » فأثبتت بذلك عفتها وكمال طهارتها ، فنفخ جبريل فى جيب درعها فحملت بنبى الله وكلمته عيسى صلوات الله عليه ، وصدقت بشرائع الله وكتبه التى أنزلها على أنبيائه ، وكانت فى عداد القانتين العابدين المخبتين لربهم المطيعين له .

روى أحمد فى مسنده: «سيدة نساء أهل الجنة مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم عائشة» وفى الصحيح «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وفضل عائشة كفضل الثريد على سائر الطعام».

وإنما فضل الثريد لأنه مع اللحم غذاء جامع بين اللذة وسهولة التناول وقلة المئونة فى المضغ وسرعة المرور فى المرىء، فضرب به مثلا ليؤذن بأنها رضى الله عنها أعطيت مع حسن الخلق حلاوةَ المنطق، وفصاحة الكلام، وجودة القريحة، ورزانة الرأى، ورصانة العقل، والتحبب للبعل، وبحسبك أنها عقلت من النبى صلى الله عليه وسلم مالم يعقل غيرها من النساء، وروت مالم يرو مثله الرجال.

ماتضمنته هذه السورة

اشتملت هذه السورة على شيئين:

(١) أخبار نساء النبى صلى الله عليه وسلم، وحلفه صلى الله عليه وسلم ألا يشرب العسل إرضاء لبعضهن، واطلاع الله له على ما أفشين من سرّ أمرهنّ بكتمه، من أول السورة إلى قوله: «وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

(٢) ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكان الفراغ من مسودّة هذا الجزء بحلوان من أرباض القاهرة كورة الديار المصرية فى العشرين من شهر رمضان المعظم من سنة خمس وستين وثلثمائة بعد الألف من الهجرة.

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء